معالم على طريق الصحوة (٨)

زغل الدعاة

الجزء الأول

تأليف

سعيد بن ناصر الغامدي



دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

نُزُل الدُّعاة

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

الغامدي ، سعيد بن ناصر

زغل الدعاة .

١١٢ ص : ٢٠ سم

ردمك ٤-٨-٠-٧٩١-٩٩٦٠

١ - الإسلام - تعليم ٢ - الأخلاق الإسلامية ٣ - الدعوة الإسلامية

أ - العنوان

ديوي ٢١٣ ١٥/١٦٣٩

رقم الإيداع : ١٥/١٦٣٩

ردمك : ٤-٨-٠-٧٩١-٩٩٦٠

معالم على طريق الصحوة (٨)

زغل الدعاة

تأليف
سعيد بن ناصر الغامدي



دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة



الطبعة الثانية
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

دار الأندلس الخضراء

حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري
ص.ب: ٤٢٣٤٠ - جدة: ٢١٥٤١ - هاتف/فاكس: ٦٨٢٥٢٠٩
المملكة العربية السعودية

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلامضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أما بعد :

فهذا عنوان مقتبس من عنوان رسالة للحافظ أبي عبدالله محمد بن أحمد الذهبي رحمه الله سماها «**زغل**[(١)] **العلم**» ذكر فيها مايعاب على أهل الفنون وماينتقد على أصحاب المذاهب ، مع ذكره لمحاسنهم وثنائه على مناقبهم وتنبيهه على ماينبغي لهم أن يترفعوا عنه من الأخطاء والزلات العلمية والعملية . وعلى منواله أنسج هذه الوريقات قاصداً النصح وراجياً النفع لي ولمن يطلع عليها .

---

(١) الزغل : هو الغش والأخلاط ، يقولون زغل الصائغ الذهب أي غشه بالنحاس ونحوه ، والعملة الزغل هي المغشوشة ، والمعنى أنها مزخرفة مغشوشة – انظر محيط المحيط ٣٧٣ والمعجم الوسيط ١ / ٣٩٦ .

إيضاح : إذا قلت في الهامش انظر فالكلام منقول بالمعنى ، وإذا ذكرت اسم الكتاب غير مسبوق بكلمة انظر فالكلام منقول بنصه .

بيـد أنه يجب أن أذكـر قـبل أن أشـرع في تفـاصـيل هذا العنوان ، أن العلماء والدعاة هم صفوة الأمة وهم حصنها الحصين ودواء أدوائها وبلسم أمراضها ، وفيهم - برغم ماينتقد عليهم - من صفات النبل وسيماء الفضل مايجعل زلاتهم مغمورة في بحر حسناتهم الكبير .

وهم في هذا العصر على وجه الخصوص صفحة المجد الناصعة في زمن الانتكاسات والانهيارات والهزائم ، فهم الذين يحملون همّ الأمة ويسعون لمجدها ويتفانون من أجل إعزازها ويتنافسون لتحصيل قوتها وسؤددها ومكانتها .

والدعـاة هم أهل الوعي النقي في عـصـر التلوث العقدي ، وهم أهل الأصالة في زمن البغاء الفكري ، وهم منارات الثبات والنصاعة بين المتفاخرين بأنوثة التلقي من أفكار الشرق والغرب ، وكيف لايكون الدعاة كذلك وهم قد تميزوا باعتصامهم بالوحي من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ؟ في الوقت الذي ذابت فيه أفئدة كثير من أبناء المسلمين على فتات موائد الشرق والغرب تتلمس خلاصها في وحول الماديات وتبحث عن مقوماتها ودعائمها في مستنقعات الإفرازات البشرية .

والدعاة هم الذين ميزوا بين الأصيل والدخيل، فثبتوا على أصولهم ومبادئهم ورنوا بأبصارهم اليقظة وبصائرهم الواعية للاستفادة المستبصرة من كل جديد نافع .

ففضائلهم كثيرة وكمالاتهم عديدة ومناقبهم جليلة لايمكن لي أن أحصيها في هذا المقام .

وإنما قدمت بهذه التقدمة - مع كونها بديهية عند أهل الفضل والإنصاف - لئلا يظنَنَّ ظان وأنا أتحدث عن زغل الدعاة بأنهم هم أهل المعايب والمثالب فقط - معاذ الله - فهم أهل خير وفضل وبر وكرم، وأهل مناقب شاعت في كل مكان ، يعرفها كل ذي قلب سليم وعقل قويم وهم مع كل ذلك بشر كالبشر يخطئون ويصيبون :

بهم بُنية الإسلام صحت وكيف لا
تصح وهم أركانها والطبائع

فهم رخصاً أبدوا لنا وعزائماً
هُدينا بها فهي النجوم الطوالع

فلا تبتئس أنْ وسّع الله في الهدى
مذاهبنا بالعلم والله واسع

تفرقت الآراء والدين واحد
وكل إلى رأي من الحق راجع

فــهــذا اخــتــلاف جَرَّ للخلق راحــةً
كما اختلفت في الراحتين الأصابع(١)

هؤلاء هـم الدعـاة ، والعلمـاء على رأس الـدعـاة بلا شك ، إذ لا تناقض بين الطائفـتين فكلهـم عن منهل واحـد يصدرون وعلى طريق واحد يسيرون ، ولست هنا بصدد حل الثنائية المزدوجة التي زُعـمت ، ثنائية التناقض بين الدعاة والعلماء ، فالعلماء العاملون هم رؤوس الدعاة ، والدعاة على سبيل هداية يَجْرون في هذا المجرى المبارك ويسلكون تلك المدارج الصاعدة نحو رضوان الله عزوجل .

وكما ذكرت سابقاً بأن الدعاة بشر تقع منهم الأخطاء وتحدث منهم الزلات وتقع منهم السلبيات ، لأنهم ليسوا في مقام من العصمة أذن لهم به ، ولايدعون ذلك لأنفسهم «وكيف يعصم من الخطأ من خلق ظلوماً جهولاً ولكن من عدت غلطاته أقرب إلى الصواب ممن عدت إصاباته »(٢) .

ومن ذا الذي ترضى ســجاياه كلهـــا
كفى المرء نبلاً أن تعــد معايبــــه (٣)

---

(١) ديوان البوصيري ص ١٧ .

(٢) مدارج السالكين ٣/ ٥٢٢ .

(٣) بيت من قصيدة لبشار بن برد .

وفي صحيح الإمام البخاري من حديث حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه في الحديث الطويل الذي قال في أوله «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فسأله إلى أن قال: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن، قلت: ومادخنه ؟ قال:قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر . . . » [١] الحديث.

فمذ وجد الدخن في هذه الأمة وهو موجود ومتصل ولكنه تتفاوت درجاته من عصر إلى عصر ومن مكان إلى مكان ومن فئة إلى فئة ومن شخص إلى شخص . والدخن كما فسره الحافظ بن حجر « هو الحقد، وقيل الدغل، وقيل فساد في القلب، ومعنى الثلاثة متقارب يشير إلى أن الخير الذي يجيء بعد الشر لايكون خيراً خالصاً بل فيه كدر » [٢].

وقال العلامة صالح بن مهدي المقبلي في العَلَم الشامخ بعد أن ساق حديث حذيفة « فانظر ياطالب النجاة هل ادخر

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم ٧٠٨٤ كتاب الفتن باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة.

(٢) فتح الباري ١٣/ ٣٦.

عنك هذا الحديث نصحاً أو ترك تَعلّة إلا لمن أعرض عن الإنصاف لنفسه صفحاً، وانظر قول الصادق المصدوق ﷺ أن الخير بعد الشر فيه دخن ، فإنه لم يقع الخير محضاً بعد وقوع الخلاف المستقر الذي هو الشر كل الشر، ثم كان للمسلمين إمام وجماعة مع ذلك الدخن فلزمه بقايا الصحابة رضي الله عنهم، ثم استحكم الشر وصار المسلمون أجناداً مجندة والدعاة على أبواب جهنم من أئمة الضلال من أهل العلم وأهل الأمر إلى يومك هذا ، وكل يدّعي أنه متمسك بالسنة، فمنهم من عنده شطر صالح من السنة ومنهم من بقي له كلمة الإسلام ويغر نفسه بالدعاوى ويستدرج الغافلين ، ومازال الأمر متفاوتاً والخير والشر كفتي ميزان يرتفع هذا عند هذا آونة وينخفض أخرى ، تارة بحسب السيرة وتارة بحسب العلم وتارة بحسب العمل ، والناس أو كثير منهم على دين الملك وغالب الأحوال والخطباء يشهدون لهم على رؤوس الأعواد كما يشهدون لأئمة العلم الذين شيدوا حصون البدع ودار على رحائهم حل عقد السنة جَمْع ، هذا يثبت سنة ويعقد بجنبها راية بدعة، والآخر ينكر تلك البدعة فيصيب ولكن يجرّه الخصام إلى هدم تلك السنة فيصبح أيضاً قد أقام سنة وشيد بدعة ،

فكل منهم قد خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وشارك هذه الأمراء في هتك تلك الأستار وسفك تلك الدماء ونهب تلك الأموال وثلب تلك الأعراض وهذا عصرنا -أحسن الله عاقبتنا وجميع المسلمين- له الحظ الأوفر من الخبط - إلى أن قال - والأمر كما قيل :

وذا زمانك فانظــــر في حوادثــــــه

فالوصف يقبح للمحســوس بالبصــــر

وفي كل خير قد شملهم وهو كلمة الإسلام فاعرفها لهم وارع حقها وما أصعب ذلك !! ولاتظلمهم من صفات الخير التي علمت لهم شيئاً ولاتحبطها بجنب شرورهم فليس ذلك إليك وابرأ إلى ربك من شرورهم ولاتسوّين بين الثرى والثريا منهم . . . »[1].

فإذا كان هذا حال عصر المقبلي فكيف بحالنا في عصرنا هذا الذي اشتدت فيه الغربة واندرست فيه معالم السنة إلا ماشاء الله وأصبح الدعاة في أكف الردى يتقلبون وعلى نيران الأذى يدرجون لأنهم إلى الله يدعون وإلى صراطه المستقيم يدلّون وأضحى أكبر همهم تعليم فرائض

---

(١) العَلم الشامخ ص ٢٧٣ - ٢٧٤

الدين التي نسيت ، والتحذير من نواقض الدين التي أسّست **﴿ومانقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾** [(١)].

ومادام الدعاة بهذه المثابة فهم في حاجة إلى تبصيرهم بعيوبهم وإن رجحت عليها المحاسن ، وتذكيرهم بسلبياتهم وإن غلبت عليها الإيجابيات ؛ لأن ذلك من أبواب التواصي بالحق والصبر وهم ملح الأمة والزمان بهم يطيب طعم الحياة وبهم تسلم من الفساد والعفن وبهم يرفع الله عن الناس فتناً كثيرة ومصائب عظيمة ، وما أذكره من أمور في شأن **«زغل الدعاة»** أرجو أن يقبل بحسن الظن إذ لم أرد فئة بعينها ولا شخصاً بعينه ولا أدعي أن هذه القضايا أخذت وصف العموم ، وعلى كل حال آمل أن يتقبل الدعاة هذه النصائح بقبول حسن وضمن حدود قول عبدالله الشهري[(٢)] :

هو قد جفا عهد الجفا	وفؤاده لك قد صفا
أحسن به ظناً وقل	للشائعات لقد كفى
واذكر غداة لقيته	يوماً فرحّب واحتفى
وجرى حديث شيّق	سرّ المحب وما شفى
فهناك تعذره إذا	ما كان قلبك منصفا

---

(١) البروج : ٨ .

(٢) أحد شعراء الصحوة الناشئين .

فما هي إلا مناصحة من شفيق أراد الخير لنفسه ولإخوانه متمثلاً بقول عبد القاهر بن طاهر التميمي :

يا من عدا ثم اعتدى ثم اقترفْ
ثم انتهى ثم ارعوى ثم اعترفْ
أبشر بقول الله في آياته
إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلفْ[1]

(١) الحاوي للسيوطي ١/ ٢٧٧ .

(١)

احتكـار الصـواب

يشتط بعض الدعاة في نقده لإخوانه ويتجانف بعضهم لعدوان في الحكم بتبديع أوتفسيق أو تضليل في مسائل اجتهادية تقبل تعدد وجهات النظر ويسوغ فيها الاختلاف ، أما مسائل أصول الدين وكلياته وقواعده وأركانه فليست من هذا الباب ، وليست المقصودة في هذا المقام ؛ لكونها من جليل مسائل الدين ، وكذلك ماكان من أمور الدين الظاهرة المتواترة كوجوب بر الوالدين وتحريم شرب الخمر والربا وكذلك ماكان معلوماً من الدين بالضرورة [١] .

وقد تكلم العلماء في هذه المسألة وخصوصاً تقسيم الدين إلى أصول وفروع وما الذي يعد من أصول الدين وما الذي يعد من فروعه ، وممن توغل في حل هذه المسألة شيخ

(١) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ٦/ ٥٦ ـ ٥٧ ص ١٩/ ١٣٤ .

الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى حيث بيّن أن كلاً من المسائل الخبرية والمسائل العملية تنقسم إلى أصول وفروع وأن من البدع حصر أصول الدين في المسائل العقدية ثم ذكر أقوال الناس في تحديد ماهو أصل وماهو فرع وعقب على ذلك بقوله [. . . بل الحق أن الجليل من كل واحد من الصنفين « يقصد المسائل العلمية والمسائل العملية » مسائل أصول والدقيق مسائل فروع][1].

ثم بيّن رحمه الله أن المسائل الخبرية «العقيدة» والمسائل العملية تنقسم إلى قطعي وظني وأن الخلاف التنوعي والمتضاد يقع فيهما وأن الاجتهاد والخطأ فيه يسوغ ويحصل فيهما ، وأن مراتب العلم والعمل متفاوتة في كل منهما ، وكذلك مراتب الحكم على المبتدع أو التارك أو الجاحد تختلف في كل منهما باختلاف مرتبة الذي وقعت فيه المخالفة[1].

أما الذي نحن بصدده فهي مسائل الفروع التي يسوغ فيها الاجتهاد ويقع فيها الاختلاف فلا ريب أن المسلم متعبد بما يعتقده حقاً إذا قام البرهان عنده على كونه كذلك . ولكن ذلك لايسوغ له أن يحتكر الصواب لنفسه أو فئته أو شيخه أو

---

(١) مجموع الفتاوى ٦/ ٥٨ ـ ٦١ .

(٢) انظر المرجع السابق ٦/ ٥٦ .

مذهبه بحيث يقوم بالتثريب على مخالفيه ويرفع ألوية التشنيع على من رأى غير رأيه وقال بغير قوله .

ومن أمثلة ذلك مايدعيه بعض الدعاة عند مناقشتهم لغيرهم في أساليب الدعوة وطرائقها حيث تجره إرادة مصادرة الخصم إلى الزعم بأن وسائل الدعوة وأساليبها توقيفية .

ولربما سَجّل ذلك في شريط مسموع أو كتبه في مجلة أو جريدة أو حادث به من يسأله على الهاتف أو حاضر به فوق منصة المسرح وخلف الجهاز اللاقط ، أو من خلال أجهزة التصوير التلفازي أو غيره ، فيكون قد ناقض بفعله ما ادعاه بقوله في معرض الحجاج . ومن أمثلة ذلك قول أحدهم تحت عنوان [دعوتنا وعقيدتنا]

قال : (ننكر على الذين يقسمون الدين إلى قشور ولباب وجزئيات وكليات ، ونعلم أن هذه دعوة هدامة) .

فأما تقسيم الدين إلى قشور ولباب فتقسيم خاطئ ، وأما تقسيمه إلى جزئيات وكليات فتقسيم صحيح جرى عليه العلماء ، ومن نظر في كتب الفقه والعقائد وجدها على اختلاف مذاهب أصحابها تقول بهذا التقسيم ، وفي القول

المنقـول آنفـاً عن شـيخ الإسـلام ابن تيـمـيـة مـايدحـض هذا القـول بل إن من له أدنى مـعـرفـة بالعلـم وبكتـبـه وبأقـوال العلمـاء فيـه يعلم أن هذا التقسيم له وجـه واسع من الصحة والصـواب وإلا فكيف يمكن أن نقرن في مسـائل الاعـتقـاد ـ مثلاً ـ بين الخلل في توحيد الألوهية والأقوال في مسألة رؤية النبي ﷺ لربه جل وعلا في ليلة المعراج أو سماع الميت لكلام الأحيـاء أو تعذيب الميت ببكاء الحي ونحو ذلك من المسائل الاعتقادية الفرعية .

وكيف يمكن أن نقرن في مسائل العمل بين تارك الصلاة وحالق اللحية ، أو بين آكل الربا وآكل ذبائح أهل الكتاب في عصرنا هذا؟ ! .

بل كـيف يمكن التـسـوية في الأحكام بين ضـروريات الدين وحاجياته وتحسينياته؟ ! .

وفي هذين المثلين مـايدل على مـاسـواهمـا في مـسـألة احتكار الصواب ، حيث يُخشى أن يتحول هذا الاحتكار إلى ثقـة عـارمـة تتحـول مع طول المدى وفـرط التمـادي من ثقـة بسلامة المنحى إلى كبْر فيه بَطَرٌ للحق وغَمْط للناس .

ولابرأة من ذلك إلا إذا صحب هذه الثقة – المبنية على

البرهان النقلي والعقلي - خصب إيماني دافق ومودة ومحبة للمؤمنين ورفق بهم ورغبة في إيصال الخير إليهم .

وكذلك يُخشى أن تتحول الرزانة المفرطة عند بعض الناس إلى قسوة تطفئ دفء الابتسامة وتذهب جمال خفض الجناح للمؤمنين، وتؤدي إلى عقابيل سيئة في طريق الخير والفضل والبر والفضيلة وطريق انتشارها بين الناس .

ومن هنا يمكن أن نفهم العلة في سعة أفق وصدر من كانت له عناية بكتب الفقه المقارن ، ماليس لدى المتفقه على مذهب واحد أو المتتلمذ على شيخ واحد؛ وذلك لأن الأول يطلع على أقوال عديدة وعلى أدلة كل قول ومناقشة بعضهم لبعض فيكسب من ذلك اتساعاً في مداركه وعقله وفكره من خلال اطلاعه على أقوال المخالفين والمختلفين بعكس من لم يكن كذلك، حيث تجده يجزم في الأمور الاجتهادية بأن هذا القول هو الحق المطلق والصواب الذي لاسواه ، وتجد من يزعم بأن من كان على المنهج الفقهي الفلاني فهو المصيب وأما غيره فلا ، ومن يحتكر الصواب في شيخ أو طائفة أو مذهب أو كتاب، وربما تجاوز بعضهم في حكر الصواب إلى أن يصف به أقاليم معينة؛ مما يؤدي إلى الشتات والفرقة والحدة والقسوة وأشياء من التعالي والكبر

عياذاً بالله .

أما سلفنا فكانوا على غير هذا وكتبهم وسيرهم طافحة بذلك ، فمن ذلك ماروواه ابن عبد البر رحمه الله في جامع بيان العلم وفضله بسنده إلى عمر بن عبدالعزيز رحمه الله قال «ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا لأنه لو كانوا قولاً واحداً كان الناس في ضيق وأنهم أئمة يقتدى بهم فلو أخذ رجل بقول أحدهم كان في سعة»[١] هذا النفس الزاكي والأفق الراقي للخليفة الراشد رحمه الله يدل على فقهه وعمق فهمه لدين الله تعالى .

يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله « . . . أهل الإيمان قد يتنازعون في بعض الأحكام ولايخرجون بذلك عن الإيمان ، وقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيماناً »[٢] .

ويقول يحي بن سعيد رحمه الله فيما رواه ابن عبد البر رحمه الله « مابرح أولو التقوى يفتون فيحل هذا ويحرم هذا

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٨ .

(٢) إعلام الموقعين ١/ ٤٩ .

فلا يرى المُحرِّمُ أن المحل هلك لتحليله، ولا يرى المحلُّ أن المُحرِّم هلك لتحريمه »[١].

فأين هذا ممن انجر إلى تبديع أقرانه من العلماء أو تسفيه إخوانه من الدعاة، وجعل رأيه في بعض مسائل الفروع كالتصوير والإنشاد والتمثيل مقياساً لاتباع منهاج أهل السنة والجماعة .

مع أنه من المعلوم عند أولي الأبصار أن المسائل كثيرة وأن الخلاف فيها بين أهل العلم قديماً وحديثاً كثير كذلك ومافتئ العلماء من أصحاب المذاهب وغيرها يناقش بعضهم بعضاً ويرد بعضهم على بعض من غير جنوح لاتهام أو رمي بابتداع، وفي ذلك يقول الإمام سفيان بن سعيد الثوري رحمه الله :

« إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي قد اختُلف فيه وأنت ترى غيره فلا تنهه »[٢]

وقال أيضاً « ما اختلف فيه الفقهاء فلا أنهى أحداً من إخواني أن يأخذ به »[٣].

والسبب في هذا الحكم أن المسائل الاجتهادية مستنبطة

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٨٠ .

(٢) الفقيه والمتفقه ٢/ ٦٩، حلية الأولياء ٦/ ٣٦٨

(٣) الفقيه والمتفقه ٢/ ٦٩.

من أدلة ظنية الثبوت أو ظنية الدلالة، كما قال الزركشي :

« اعلم أن الله لم يُنصّب على جميع الأحكام الشرعية أدلة قاطعة بل جعلها ظنية قصداً للتوسيع على المكلفين لئلا ينحصروا في مذهب واحد بقيام الدليل القاطع »[(١)].

ويقول ابن خلدون في مقدمته : « اعلم أن هذا الفقه المستنبط من الأدلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مدار كهم وأنظارهم خلافاً لابد من وقوعه واتسع ذلك في الملة اتساعاً عظيماً »[(٢)].

وما أسميناه هنا باحتكار الصواب هو ماسماه العلماء - في السابق - تعصباً ويستوي في ذلك التعصب المذهبي أو اللامذهبي أو التعصب للشيوخ أو للقادة أو للكتب أو للمناهج الدعوية.

يقول العلامة ابن عبدالهادي الحنبلي : « وماتحلى طالب العلم بشئ أحسن من الإنصاف وترك التعصب »[(٣)].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « وجمهور

---

(١) تسهيل الوصول للمحلاوي ص ٢٤٠.

(٢) مقدمة ابن خلدون ٣٦٢.

(٣) نصب الراية لأحاديث الهداية ١/ ٣٥٥.

المتعصبين لا يعرفون من الكتاب والسنة إلا ماشاء الله ، بل يتمسكون بأحاديث ضعيفة أو آراء فاسدة أو حكايات عن بعض العلماء والشيوخ قد تكون صدقاً وقد تكون كذباً» (١) .

ومن ألوان احتكار الصواب والتعصب أن تجد من يجرؤ على الزعم بأن فئته أو مذهبه أو أتباع الشيخ الفلاني هم أهل السنة والجماعة وهم الفرقة الناجية . ومن عداهم ممن هم في إطار أهل السنة والجماعة بالحقيقة لا بالادعاء يراهم - بسبب تعصبه ونظرته المُحْتَكِرة - أنهم خارج إطار أهل السنة، بل ربما صرح بأنهم من الفِرَق الهالكة نسأل الله العافية والسلامة .

ثم تجد هذا المدّعي ينادي بشعاره أو بمذهبه أو بفئته أو بشيخه على أساس أنها هي معيار الصواب ومقياس النجاة والصراط المستقيم الذي من سار عليه أفلح ومن لم يسلكه خسر، إلى آخر ما هنالك من لوازم هذا الادعاء ومطرداته، وهو من التعصب الذميم المؤدي إلى التفرقة والشنآن، حتى ولو كان الشعار المرفوع صحيحاً والمذهب المرسوم سليماً .

ودليل ذلك ماجاء في الصحيحين من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : «كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال الأنصاري : ياللأنصار،

(١) مجموع الفتاوى ٢٢/ ٢٥٤ .

وقال المهاجري : يا للمهاجرين ، فسمع ذاك رسول الله ﷺ فقال : مابال دعوى جاهلية ؟ قالوا : يارسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال : دعوها فإنها منتنة . . . الحديث »[1] .

فقد انتدب المتخاصمان من الصحابة قومهما بنُدْبة أصلها صحيح ، وبشعار ممدوح في القرآن والسنة ، ولكنه لما تحول إلى عصبيّة وانقلب في الاستعمال إلى حميّة وأصبح سبباً في الفرقة والخصام وصفه رسول الله ﷺ بدعوى الجاهلية وأمر بتركها لأنها منتنة خبيثة ، ولم يأمر بهجر شعار المهاجرين والأنصار ولم يقل بأن التسمي بهذين الاسمين يؤدي إلى التحزب والتفرق ، والانخزال تحت مسميات خاصة ، بل أبقى هذه الأسماء المباركة ونهى عن اللوازم الخاطئة كالتعصب والحمية ، ولذلك بقي الصحابة يعملون بهذه الشعارات الخاصة ويتنادون بها في وقت الحاجة كما في بعض المعارك حينما كان يُنادى على الناس ياللمهاجرين ويا للأنصار يا أهل بيعة الشجرة ، وطُلب في بعض المعارك أن يتمايز الناس تحت هذه الشعارات ليرى من أين يؤتى المسلمون كما في معركة اليمامة فقد كانت راية المهاجرين مع

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير باب قوله : ﴿ **سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم** ﴾ رقم ٤٩٠٥ .

سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما ، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه ، والعرب على راياتها . (١)

«وميز خالد بن الوليد رضي الله عنه المهاجرين من الأنصار من الأعراب وكل بنى أب على رايتهم يقاتلون تحتها حتى يعرف الناس من أين يؤتون » (٢) .

فإذا كان الصحابة قد أخذوا هذه الشعارات في مجالات الخير والتنافس فيه والتسابق إليه وطرحوا مايترتب عليها من عصبية أو حمية أو جاهلية فأولى بالدعاة أن تنفسح صدورهم لبعضهم، وأن يقبل كل منهم الخير والبر من أي وجه جاءه، ويرد بالحسنى مايراه من منكر وبغي وفساد .

وأن يستلّوا من تنوّع مناهجهم مايعود بالخير على الأمة جمعاء، وأن يطرحوا مهاوي التنغيص والشتات .

ولتكن نظرتهم إلى التنوّع من نوع قول السيوطي رحمه الله « اعلم أن اختلاف المذاهب في هذه الملة نعمة كبيرة وفضيلة عظيمة وله سر لطيف أدركه العالمون وعمى عنه الجاهلون حتى سمعت بعض الجهال يقول : النبي ﷺ

(١) انظر البداية والنهاية ٦/ ٦٢٥ .

(٢)البداية والنهاية ٦/ ٦٢٥ .

جاء بشرع واحـــد فمن أين مذاهـــب أربعــة»[١] وذكـر ابن عـبد البـر رحـمـه الله أن هذا الرأي هو أحـد قـولي العلمـاء المعـتبـرين من السلف والخلف، فـقـال تحت عنوان «باب: جامع بيان مايلزم الناظر في اختلاف العلماء، قال أبو عمر: اختلف الفقهاء في هذا الباب على قولين:

أحدهما: أن اختلاف العلماء من الصحابة ومن بعدهم من الأئمة رحـمـة واسـعـة، وجـائز لمن نظر في اخـتـلاف أصـحـاب رسـول الله ﷺ أن يأخـذ بقـول من شـاء منهـم، وكـذلك الناظر في أقاويل غيـرهم من الأئمة مـالم يعلم أنه خطأ، فإذا بان له أنه خطأ لخلافه نص الكتاب أو نص السنة أو إجماع العلماء لم يسعـه اتباعه، فإذا لـم يبن له ذلك من هذه الوجوه جاز له استعمال قوله، وإن لم يعلم صوابه من خطئه، وصار في حيز العامة التي يجوز لها أن تقلد العالم إذا سألته عن شيء وإن لم تعلم وجهه، وهذا قـول يُروى معناه عن عـمر بن عـبدالعزيز والقاسم بن مـحـمد وعن سفـيـان الثوري ـ إن صح ـ وقال به قوم – إلى أن قال – على أن جماعة من أهل الحديث متقدمين ومتأخرين يميلون إليه»[٢].

ثم سـاق ابن عـبدالبر بسنده أقوال الأئمة الذين قـالوا

(١) جزيل المواهب في اختلاف المذاهب ص ١٥.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٦.

بهذا القول، ومن ذلك :

«عن القاسم بن محمد بن أبي بكر قال : لقد نفع الله باختلاف أصحاب النبي ﷺ في أعمالهم لايعمل العامل بعمل رجل منهم إلا رأى أنه في سعة ورأى أنه خير منه قد عمله . وقال أيضاً : لقد أوسع الله على الناس باختلاف أصحاب محمد ﷺ أي ذلك أخذت به لم يكن في نفسك منه شيء .

وعن رجاء بن جميل قال : اجتمع عمر بن عبدالعزيز والقاسم بن محمد فجعلا يتذاكران الحديث ، قال فجعل عمر يجئ بالشئ مخالفاً فيه القاسم قال وجعل ذلك يشق على القاسم حتى تبين فيه ، فقال له عمر : لاتفعل فما يسرني أن لي باختلافهم حمر النعم .

- ثم ذكر بسنده - أن القاسم بن محمد سئل عن القراءة خلف الإمام فيما لم يجهر فيه ، فقال : إن قرأت فلك في رجال من أصحاب رسول الله ﷺ أسوة ، وإذا لم تقرأ فلك في رجال من أصحاب رسول الله ﷺ أسوة .

وعن يحي بن سعيد قال : مابرح أولو الفتوى يفتون فيحل هذا ويحرم هذا فلا يرى المحرم أن المحل هلك

لتحليله، ولا يرى المحل أن المحرِّم هلك لتحريمه .

قال أبو عمر : فهذا مذهب القاسم بن محمد ومن تابعه، وقال به قوم، وأما مالك والشافعي ومن سلك سبيلهما من أصحابهما وهو قول الليث ابن سعد والأوزاعي وأبي ثور وجماعة أهل النظر ، أن الاختلاف إذا تدافع فهو خطأ وصواب ، والواجب عند اختلاف العلماء طلب الدليل من الكتاب والسنة والإجماع والقياس على الأصول منها ، وذلك لايعدم، فإذا استوت الأدلة وجب الميل مع الأشبه بما ذكرنا بالكتاب والسنة، فإذا لم يبن ذلك وجب التوقف ولم يجز القطع إلا بيقين ، فإن اضطر أحد إلى استعمال شيء من ذلك في خاصة نفسه جاز له مايجوز للعامة من التقليد ، واستعمل عند إفراط التشابه والتشاكل وقيام الأدلة على كل قول بما يعضده قوله ﷺ « البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم ماحاك في الصدر » فدع مايريبك إلى مالا يريبك ، هذا حال من لايمعن النظر »[1] .

فهذه أقوال أعلام من أهل الإسلام ولانرى فيها نعرة التعصب واحتكار الصواب ، بل الملاحظ أن في كلا القولين اطراح للتعصب وترك له .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٦ـ ٩٩ .

ولاغرو أن يكون هذا هو موقفهم في المسائل الاجتهادية والفروع، ومايلحق بها من مسائل الممارسات العملية، كأمور القتال والحرب وأمور السياسة من تصريحات وآراء أو مواقف وأعمال؛ وذلك لأن الخلاف في هذه الأمور ذات الأوجه العديدة وذات الأدلة الظنية أمر واقع لامحالة؛ لاختلاف عقول الناس ومداركهم؛ ولكون النصوص المتعلقة بهذه القضايا حمّالة أوجه ولطبيعة اللغة التي نزلت بها النصوص وعلى ضوئها تفهم ووفق أساليبها تدرك.

يقول الشاطبي رحمه الله « فإن الله تعالى حكم بحكمته أن تكون فروع هذه الملة قابلة للأنظار ومجالاً للظنون، وقد ثبت عند النُظَّار أن النظريات لايمكن الإتفاق فيها عادة، فالظنيات عريقة في إمكان الاختلاف لكن في الفروع دون الأصول وفي الجزئيات دون الكليات فلذلك لايضر هذا الاختلاف »[1].

وقد بين الشاطبيّ رحمه الله بعد هذا القول معنى أن في الاختلاف رحمة وسِعَة للأمة فقال موضحاً المراد بالسعة المذكورة في كلام عمر بن عبدالعزيز والقاسم بن محمد المنقول آنفاً: «ومعنى هذا أنهم فتحوا باب الاجتهاد وجواز

(١) الاعتصام ٢/ ١٦٨.

الاختلاف فيه ؛ لأنهم لو لم يفتحوه لكان المجتهدون في ضيق ؛ لأن مجال الاجتهاد ومجالات الظنون لاتتفق عادة - كما تقدم - فيصير أهل الاجتهاد مع تكليفهم باتباع ماغلب على ظنونهم مكلفين باتباع خلافهم وهو نوع من تكليف مالايطاق ، وذلك من أعظم الضيق ، فوسع الله على الأمة بوجود الخلاف الفروعي فيهم فكان فتح باب للأمة ، للدخول في هذه الرحمة فكيف لايدخلون في قسم « من رحم ربك ؟! » فاختلافهم في الفروع كاتفاقهم فيها والحمد لله »[١] .

وقد يتوجه النكير من البعض على هذا الاختلاف التنوعي فينقلونه - من باب الدحض والمنافسة وكلام الأقران - إلى اختلاف متضاد ، فيرسخون الخلاف ويقوون جانب الفرقة من حيث ظنوا أنهم سيبطلونهما ، فيكون حالهم كحال من أراد أن يشفي زكاماً فأوجد جذاماً ، وقد يستدلون على رد هذا الاختلاف السائغ بأدلة النهي عن التفرق كقوله تعالى : ﴿ **ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم** ﴾[٢] متوهمين أن المقصود به الاختلاف التنوعي

---

(١) الاعتصام ٢/ ١٧٠ـ ١٧١ .

(٢) سورة هود: ١١٨ـ ١١٩ .

والخلاف الفروعي ، ولو كان الأمر كذلك لكانت الآية تشملهم لوقوع الخلاف منهم لغيرهم ، بغض النظر عن دعاوى الترجيح فكل يدعي أن قوله هو الراجح الموافق لشرع الله تعالى .

وقد ردّ الإمام الشاطبيّ رحمه الله على هذا وفنده من عدة أوجه أوردُها بالمعنى إجمالاً :

الأول : أن جماعة من السلف الصالح جعلوا اختلاف الأمة في الفروع ضرباً من ضروب الرحمة ، وإذا كان من جملة الرحمة فلا يمكن أن يكون صاحبه خارجاً من قسم أهل الرحمة (١) .

الثاني : أن الخلاف الفروعي وقع ممن حصل له محض الرحمة وهم الصحابة ومن اتبعهم بإحسان رضي الله عنهم ، بحيث لايصح إدخالهم في قسم المختلفين المذكورين في الآية بوجه(٢) .

ولو كان المخالف منهم في بعض المسائل معدوداً من أهل الاختلاف المذكورين في الآية - ولو بوجه مّا - لم يصح إطلاق القول في حقه : أنه من أهل الرحمة وذلك

(١ ، ٢) انظر الاعتصام ٢/ ١٧٠

باطل بإجماع أهل السنة [١] .

الثالث : أن الخلاف الواقع بين أهل الرحمة إنما يحصل تحرياً لقصد الشارع حتى إذا تبين لأحدهم الخطأ فيها ، راجع نفسه وتلافى أمره فخلافه في هذه المسائل يحصل بالعَرَض لا بالقـــصـــد فلذلك لايدخلون في قـــوله ﴿**ولايزالون مختلفين**﴾ لأن الاختلاف ليس وصفاً لازماً لهم كما يدل عليه اسم الفاعل المشعر بالثبوت[٢] .

فإذا كان هذا هو حال هذه المسائل من حيث أصلها ، فإن حال المتناول لها من أهل العلم والاجتهاد يتراوح بين أجرين إن أصاب وأجر واحد إن أخطأ .

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

« ومذهب أهل السنة والجماعة أنه لا إثم على من اجتهد وإن أخطأ » [٣] .

أما الذين يقولون بأن المجتهد المخطئ آثم فهم أتباع بشر المريسي ، وكثير من المعتزلة البغداديين والقدرية ؛ لأن الخطأ والإثم عندهم متلازمة [٤] .

---

(١) انظر الاعتصام ٢/ ١٧٠ .

(٢) انظر الاعتصام ٢ / ١٦٩ .

(٣) مجموع الفتاوى ١٩/ ١٢٣ .

(٤) انظر مجموع الفتاوى ١٩/ ٢٠٤ـ ٢٠٥ ، ومنهاج السنة ٣/ ١٩ـ ٢٠ .

يقـول شيخ الإسـلام « فـأمـا الصـديقـون والشـهـداء والصالحون فليسوا بمعصومين ، وهذا في الذنوب المحققة ، وأما ما اجتهدوا فيه فتارة يصيبون وتارة يخطئون ، فإذا ما اجتهدوا فأصابوا فلهم أجران وإذا اجتهدوا وأخطأوا فلهم أجر على اجتهادهم ، وخطؤهم مغفور لهم ، وأهل الضلال يجعلون الخطأ والإثم متلازمين فتارة يغلون فيهم ويقولون إنهم معصومون ، وتارة يجفون عنهم ويقولون إنهم باغون بالخطأ ، وأهل العلم والإيمان لايعصمون ولا يؤثمون ، ومن هذا الباب تولد كثير من أهل البدع والضلال »(١) .

ويقـول ابن القيم رحمه الله تعالى في آخر كتاب الروح : « والفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع والحكم المؤول الذي غايته أن يكون جائز الاتباع ، أن الحكم المنزل هو الذي أنزله الله على رسوله وحكم به بين عباده وهو حكمه الذي لاحكم سواه .

وأما الحكم المؤول فهو أقوال المجتهدين المختلفة التي لايجب اتباعها ولا يُكفر ولايُفسق من خالفها ، فإن أصحابها لم يقولوا هذا حكم الله ورسوله بل قالوا اجتهدنا برأينا فمن شاء قبله ومن شاء لم يقبله ، ولم يلزموا به الأمة

(١) مجموع الفتاوى ٣٥/ ٦٩ .

بل قال أبو حنيفة : « هذا رأيي فمن جاءني بخير منه قبلناه » ولو كان هو عين حكم الله لما ساغ لأبي يوسف ومحمد وغيرهما مخالفته فيه ، وكذلك مالك استشاره الرشيد أن يحمل الناس على مافي الموطأ فمنعه من ذلك وقال : «لقد تفرق أصحاب رسول الله ﷺ في البلاد وصار عند كل قوم علم غير ما عند الآخرين »

وهذا الشافعي ينهى أصحابه عن تقليده ويوصيهم بترك قوله إذا جاءالحديث بخلافه ، وهذا الإمام أحمد ينكر على من كتب فتاواه ودونها ويقول : « لاتقلدني ولا تقلد فلاناً ولا فلاناً وخذ من حيث أخذوا » .

ولو علموا رضي الله عنهم أن أقوالهم يجب اتباعها لحرموا على أصحابهم مخالفتهم ، ولما ساغ لأصحابهم أن يفتوا بخلافهم في شئ ، ولما كان أحدهم يقول القول ثم يفتي بخلافه فيروى عنه في المسألة القولان والثلاثة وأكثر من ذلك ، فالرأي والاجتهاد أحسن أحواله أن يسوغ اتباعه ، والحكم المنزل لايحل لمسلم أن يخالفه ولايخرج عنه »[١] .

ويترتب على كل ماسبق أن مسائل الاجتهاد لا إنكار فيها باليد ولايصح فيها التشنيع على المخالف بالقول ،

---

(١) الروح ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .

كـالتبديع والـطعن في العـدالة والدين ، والاتـهـام في القـصـد والإرادة، كـمـا لايجـوز إيقاع الهـجـر في هذه المسـائل ، لأن ذلك كـله من البـغي والعـدوان ، ولكن ذلك لايتناقض مع النقـاش العلمي ، وإيضـاح القـول الراجح بالحـجج العلـمـيـة وبالأسلوب الشرعي القائم على المجادلة بالحسنى ، ومراعاة أدب الخلاف وحقوق الأخـوة الدينية ، والنصح لله ولرسوله ولكتـابه وللمسلمين ، على أن لايـتـخـذ هـذا النقـاش الـعلمي أسلوب الإنكار الذي يُتخذ مع العـصـاة والآثمين وأصـحـاب الإثم المبين ؛ لأنه قـد تمهّد فيـمـا مضـى عـدم تأثيم المخالف في مسائل الاجتهاد .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمـه الله تعالى ـ لما سُئل عن تقليد بعض العلماء في مسائل الاجتهاد فهل ينكر عليه أو يهجر ؟ :

« مسائل الاجتهاد من عمل فيها بقول بعض العلماء لم ينكر عليـه ولـم يهـجـر ، ومن عـمـل بأحـد الـقـولين لـم ينكر عليه ، فإن كـان الإنسـان يظهر له رجـحـان أحد القولين عمل به ، وإلا قلد بعـض العلمـاء الذين يعتـمـد عليـهـم في بيـان أرجح القولين »[1] .

---

(١) مجموع الفتاوى ٢/ ٢٧٥ .

وقال في موضع آخر: « وقد اتفق الصحابة وتنازعوا فيها على إقرار كل فريق للفريق الآخر على العمل باجتهادهم، كمسائل في العبادات والمناكح والمواريث والعطاء والسياسة وغير ذلك، وحكم عمر في أول عام في الفريضة الحمارية بعدم التشريك وفي العام الثاني بالتشريك في واقعة مثل الأولى، ولما سئل عن ذلك قال: تلك على ما قضينا وهذه على ما نقضي، وهم الأئمة الذين ثبت بالنصوص أنهم لا يجتمعون على باطل ولا ضلالة ودل الكتاب والسنة على وجوب متابعتهم »[1].

وقال النووي رحمه الله عند شرحه لقول النبي ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده..» الحديث بعد أن ذكر أنواع الإنكار ومراتبه قال: « ثم العلماء إنما ينكرون ما أجمع عليه الأئمة، وأما المختلف فيه فلا إنكار فيه - إلى أن قال - ولكن إن ندبه على جهة النصيحة إلى الخروج من الخلاف فهو حسن محبوب مندوب إلى فعله برفق، فإن العلماء متفقون على الحث على الخروج من الخلاف إذا لم يلزم منه إخلال بسنة أو وقوع في خلاف آخر»[2].

فتأمل أيها الداعية هذه الأقوال الراشدة من أعلام

(١) مجموع الفتاوى ١٩/ ١٢٢-١٢٣.

(٢) شرح النووي لصحيح مسلم ٢/ ٢٣.

علماء الإسلام، وتذكر أنهم قالوها ومافي ديار المسلمين من يحكم بغير القرآن أو يعلن الكفر والردة والإلحاد أو يجهر بمحاربة شعائر الإسلام وآدابه وعلمائه ودعاته .

فماباك بحالنا في زمن الغربة الثانية؟ حيث تداعت علينا الأمم، وتكالب علينا الأعداء، ولحق طوائف من أبناء المسلمين بالكفار عقيدة أو ولاءً، وقلّ عدد الصالحين الداعين إلى الله، وتكاثرت أعداد الغافلين والعاصين .

فإذا تصدى لهذه الأمواج المتلاطمة والظلمات المتراكبة داعية يحاول أن يسد ثغرة أو يرتق فتقاً أو يرفع مسغبة أو يوقظ نائماً تعالت ضده أصوات بعض إخوانه بالجرح والتثريب والذم والتأنيب على أمور أشد مايقال فيها إنها اجتهادية .

فيالغربة الإسلام بين أهله وذويه ، ويالقلة بصيرة بعض محبيه !!!

وممن تكلم في هذه المسألة أبو حامد الغزالي رحمه الله في إحياء علوم الدين عند كلامه عن نصاب الحسبة وشروط الاحتساب، حيث بين أن الحسبة تكون على « كل منكر موجود في الحال، ظاهر للمحتسب بغير تجسس، معلوم كونه منكراً بغير اجتهاد، فهذه أربعة شروط - إلى أن قال -

الشرط الرابع : أن يكون كونه منكراً معلوماً بغير اجتهاد، فكل ما هو في محل الاجتهاد فلا حسبة ، فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي أكله الضب والضبع ومتروك التسمية، ولا الشافعي أن ينكر على الحنفي شربه النبيذ الذي ليس بمسكر وتناوله ميراث ذوي الأرحام وجلوسه في دار أخذها بشفعة الجوار إلى غير ذلك من مجاري الاجتهاد »(١) .

وقال ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في جامع العلوم والحكم عند شرحه لحديث (من رأى منكم منكراً فليغيره . . .) :

« والمنكر الذي يجب إنكاره ماكان مجمعاً، فأما المختلف فيه فمن أصحابنا من قال لايجب إنكاره على من فعله مجتهداً أومقلداً لمجتهد تقليداً سائغاً . . . »(٢) .

ومن علماء العصر الذين تكلموا عن هذه المسألة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله حين تحدث عن التوسل إلى الله بشخص النبي ﷺ أو بذوات الصالحين فقال : « فكون بعض يرخص بالتوسل بالصالحين وبعضهم يخصه بالنبي

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/ ٣٢٤ - ٣٢٥ .

(٢) جامع العلوم والحكم ٣٠٦ .

ﷺ ، وأكثر العلماء ينهى عن ذلك ويكرهه ، فهذه المسألة من مسائل الفقه ، ولو كان الصواب عندنا قول الجمهور أنه مكروه فلا ننكر على من فعله ولا إنكار في مسائل الاجتهاد »[١] .

وقال الشيخ حسن البنا رحمه الله تعالى :

« ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماماً من أئمة الدين ، ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلته ، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صلاح من أرشده وكفايته ، وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر .

والخلاف الفقهي في الفروع لايكون سبباً للتفرق في الدين ، ولايؤدي إلى خصومة ولا بغضاء ولكل مجتهد أجره ، ولا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة من غيرأن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب »[٢] .

وقال الشيخ عطية محمد سالم حفظه الله في معرض

---

(١) مؤلفات الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب القسم الثالث ص ٦٨ .

(٢) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ص ٢٦٩ .

كلامه عن الخلاف والاختلاف وأقسام الناس بالنسبة للاجتهاد والتقليد :

« . . . . . جميع الأشخاص تدور أحوالهم على ثلاث حالات :

١ - إما مجتهد سواء الاجتهاد المطلق - إن وجد - أو الاجتهاد في المذهب أو الاجتهاد في الفتوى ، وكلها معروفة عند الأصوليين .

٢ - وإما متبع : يأخذ القول عالماً بدليله .

٣ - وإما مقلد .

فالمجتهد لايعاب عليه فيما ذهب إليه ، والمتبع حقيقة أمره أنه أخذ بدليل القول وليس برأي قائله والمقلد معلوم أن مذهبه مذهب من يفتيه .

وعلى هذا فلا مجال لنزاع ، فإن كان المخالف عالماً نوقش بلطف ، وإن كان جاهلاً عُلّم بحكمه لتبقى وحدة الأمة وإن اختلفت الأئمة » (١) .

ومن فتاوى اللجنة الدائمة للإفتاء :

[الخلاف الموجود في الفروع الفقهية بين أئمة المذاهب الأربعة يرجع إلى الأسباب التي نشأ عنها كون الحديث يصح

---

(١) موقف الأمة من اختلاف الأئمة ص ٩ .

عند بعضهم دون بعض ، أو بلوغ الحديث لواحد دون الآخر إلى غير ذلك من أسباب الخلاف ، فيجب على المسلم أن يحسن الظن بهم فكل واحد منهم مجتهد فيما صدر منه من الفقه طالب للحق ، فإن كان مصيباً فله أجران أجر اجتهاده وأجر إصابته ، وإن كان مخطئاً فله أجر على اجتهاده وخطؤه معفو عنه ، وأما التقليد لهؤلاء الأئمة الأربعة فمن تمكن أن يأخذ الحق بدليل وجب عليه الأخذ بالدليل ، وإن لم يتمكن فإنه يقلد أوثق أهل العلم عنده حسب إمكانه ، وهذا الاختلاف في الفروع لايترتب عليه منع المختلفين أن يصلي بعضهم خلف بعض ، بل الواجب منه أن يصلي بعضهم خلف بعض ، فقد كان الصحابة رضي الله عنهم يختلفون في المسائل الفرعية ويصلي بعضهم خلف بعض وهكذا التابعون وأتباعهم بإحسان][(١)] .

ومن فتاوى اللجنة أيضاً اجابتهم على سؤال نصه :

«[ما موقف الشباب من الإسلام ؟ وبماذا تنصح الشباب في الفترة الحرجة من حياتهم ؟] .

(١) فتوى رقم ٤٢٧٢ فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ج ٢ ص ٣٣٥ - ٣٣٦ برئاسة سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز حفظه الله تعالى ونائبه الشيخ عبدالرزاق عفيفي رحمه الله وعضوية الشيخ عبدالله بن قعود والشيخ عبدالله بن غديان . حفظهما الله تعالى .

الجواب : يجب على المسلم أن يعتصم بحبل الله وأن يتمسك بكتابه تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وأن يدعو إلى سبيل الله ، ولا يتعصب لما رآه إذا ظهر الصواب في غيره، بل يتبع الحق حيثما كان ، فإن الحق أحق أن يتبع ، وبالجملة فليتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة له في عمله وحسن خلقه وسمعته وفي دعوته لقوله تعالى : **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾**»[1] .

فإذا كان الأمر في الأمور الاجتهادية والمسائل الخلافية بهذه السعة عند علماء المسلمين قديماً وحديثاً . فَلِمَ نَجِدُ بعض دعاة الإسلام اليوم لا هم له إلا نصب المجانيق وإرسال الصواعق وسل السيوف الباترة على إخوانه الدعاة لا لشئ إلا لأنهم خالفوه في منهج الدعوة أو في طرائقها أو في أساليبها ووسائلها ؟ ! أو توهم أنهم مخالفون لمنهج السلف ونحو ذلك ! ! .

فينجرَّ إلى الجور والظلم بالاتهامات الباطلة واللوازم الفاسدة والأقيسة الزائفة ، بل ربما قرر أصولاً وجعلها معياراً للصواب والخطأ والهدى والضلال والبدعة والسنة . فمن ذلك مايُسمع أو يقرأ لبعض المتبوعين أن اتباع المذاهب

(١) فتوى رقم ٨٩٧٣ ج٢ ص ١٤٩

الأربعة ليسوا من أهل السنة والجماعة ، وأن اتباع المناهج والحركات الدعوية المعاصرة ليسوا من الفرقة الناجية وكذلك قادتهم وعلماؤهم .

بل من أعجب مارأيت في هذا الصدد أن أحد العلماء المتبوعين يرى الإمام السلفي المجدد محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى ليس سلفياً في الفقه والحديث وبعض مسائل الاعتقاد، وأنه ليس كشيخ الإسلام الأول - يقصد ابن تيمية - الذي كان سلفياً في كل نواحي الدعوة ومجالاتها الكثيرة (١) .

ثم تتوالى على هذا النهج المشتط التهم من الأتباع والمعجبين حتى تصبح أعراض الدعاة وأعلام المسلمين وقادة المجاهدين كالسلع التي تباع في المزاد ففلان جهمي وفلان رافضي أو شقيق للرافضي وفلان معتزلي وفلان قبوري، والفئة الفلانية ضالة هالكة وتلك مبتدعة مارقة وأولئك أشر على الإسلام من اليهود والنصارى . . إلى آخر مافي قاموس المتعصبين والمحتكرين من مثالب وشتائم توسّع الشقة وتزيدالفُرقة وتبثُّ الضغائن وتُنبت الأحقاد ولاحول ولاقوة إلا بالله .

(١) انظر ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر ٢١٩ - ٢٢٠ .

هذا الزمان الذي كنا نُحَذَّرُهُ
في قول كعب وفي قول ابن مسعودِ
إن دام هذا ولم يحدث له غِيَرٌ
لم يُبكَ مَيْتٌ ولم يُفرحْ بمولودِ[1]

وعند هذه المناسبة أنقل من فتاوى اللجنة الدائمة ما أرجو أن يكون بصيرة للمنصف الباحث عن الهدى والمتحري لمصلحة أمته قبل مصلحة فئته وطائفته وشيخه ومذهبه، والحريص على نجاة المسلمين واتّباعهم للسنة واجتماعهم عليها:

جاء في الفتوى رقم ٦٢٥٠ :

[سؤال : في العالم الإسلامي اليوم عدة فرق وطرق : الصوفية مثلاً هناك جماعة التبليغ ، الإخوان المسلمين ، السنين والشيعة فما هي الجماعة التي تطبق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

الجواب : أقرب الجماعات الإسلامية إلى الحق وأحرصها على تطبيقه أهل السنة وهم أهل الحديث وجماعة

(١) هذان البيتان من الشوارد التي لم يتفق على قائلهما .

أنصار السنة ثم الإخوان المسلمون وبالجملة فكل فرقة من هؤلاء فيها خطأ وصواب، فعليك بالتعاون معها فيما عندها من الصواب، واجتناب ماوقعت فيه من أخطاء، مع التناصح والتعاون على البر والتقوى][١].

وسئلت اللجنة الدائمة عن « الجماعات والفرق الموجودة الآن . . . جماعة الإخوان المسلمين وجماعة التبليغ وجماعة أنصار السنة والجمعية الشرعية والسلفيين . . . ما موقف المسلم منها وهل ينطبق عليهاحديث حذيفة رضي الله عنه « فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » .

فأجابت اللجنة بالفتوى رقم ٦٢٨٠ مانصه :

« كل من هذه الفرق فيها حق وباطل وخطأ وصواب وبعضها أقرب إلى الحق والصواب وأكثر خيراً وأعم نفعاً من بعض ، فعليك أن تتعاون مع كل منها على مامعها من الحق وتنصح لها فيما تراه خطأ ودع مايريبك إلى مالايريبك »[٢] .

وسئلت اللجنة الدائمة عن ما في هذا الزمان من

(١) فتاوى اللجنةالدائمة ٢/ ١٦٢ .

(٢) المرجع السابق ٢/ ١٦٢ - ١٦٣ .

الجماعات والتفريعات وكل منها يدعي الانضواء تحت الفرقة الناجية ولا يدري أيها على حق فيتبع . . . .

فأجابت اللجنة بالفتوى رقم ٧١٢٢ مانصه :

[كل من هذه الجماعات تدخل في الفرقة الناجية إلا من أتى منهم بمكفر يخرج من أصل الإيمان ، لكنهم تتفاوت درجاتهم قوة وضعفاً بقدر إصابتهم للحق وعملهم به وخطئهم في فهم الأدلة والعمل ، فأهداهم أسعدهم بالدليل فهماً وعملاً ، فاعرف وجهات نظرهم ، وكن مع أتبعهم للحق وألزمهم له ، ولاتبخس الآخرين أخوّتهم في الإسلام فترد عليهم ما أصابوا فيه من الحق ، بل اتبع الحق حيثما كان ولو ظهر على لسان من يخالفك في بعض المسائل ، فالحق رائد المؤمن ، وقوة الدليل من الكتاب والسنة هو الفيصل بين الحق والباطل][1] .

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة ٢/ ١٦٣ .

(٢)

المبالغــــة

مما يلاحظ في مجتمعاتنا شيوع ظاهرة المبالغة في فئات الأمة قديمها وحديثها - إلا من رحم الله - ولعل من أسرار ذلك مايقال عن شاعرية الشرقيين وميلهم الفطري إلى لغة الشعر والعاطفة، وليست هذه مثلبة خالصة إلا إذا أصبحت العاطفة وأجواؤها بديلاً للغة العقل والعلم والتحقيق التي تضع الأمور في نصابها من غير وكس ولا شطط .

وإن يكن لعلماء اللغة والبلاغة في المبالغة تقسيمات بين المقبول وغير المقبول والمعقول وغير المعقول ، ومايعدّ من أبواب الغلو والمجاوزة بحيث لايكون ممكناً عقلاً ولا عادة ، وماهو دون ذلك مما أطلقوا عليه « الإغراق » وهو الممكن في نفسه عقلاً لا عادة ، وماهو أقل من هذين وهو الذي سموه «التبليغ» وهو الممكن في نفسه عقلاً وعادة ، أقول إن يكن

هذا التقسيم قد تواطأ عليه علماء البديع فهو توصيف لحالات الادعاء الشعري الذي يجوز فيه ما لايجوز في غيره - كما يقولون - لأن أفق الشاعرية أرحب من عبارات العلم والنقل والخبر والتعديل والتجريح التي لابد أن تلتزم الصدق المجرد والحقيقة الناصعة .

ومع كل ذلك فقد عدّ النقاد المجاوزة الشعرية بالإغراق والمبالغة من عيوب الشعر ومن مثالب الشعراء ، ولاشك في صحة هذا الحكم النقدي لما في المبالغة من سماجة واستخفاف بعقل السامع وسخرية من وجدانه كما في قول الشاعر :

كفى بجسمي نحولاً أنني رجل
لولا مخاطبتي إياك لم ترني

فهو يصف نحوله وتضاؤله بهذا الوصف السقيم كما قال آخر :

قل تركتُ الصبّ فيكم مغرماً
ماله مما براه الشوق فَيّ

فليذهبا إذن إلى معامل المختبرات الطبية لكي يتمكن المعشوق من رؤية هذا العاشق المتلاشي ، تحت المجهر !!

وإذا دخلت في الشعر العربي من باب المديح فإنك ترى العجب العجاب من المبالغات التي لايقبلها عقل ولا منطق كقول أبي نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى أنه
لتخافك النطف التي لم تخلق

ولو كان الممدوح ممن يحترم الحقيقة لحثى التراب على وجه هذا المتملق الكاذب، ولكنها نفسية اجتماعية وذوقيات شعرية غلبت على الوجدان العام حتى استمرأ الناس هذه المجاوزات وطغت عليهم هذه المقاصد لتشل جزءً مهماً من التفكير العام ولينبت في إثر ذلك نبات المبالغة ويترعرع في ساحات عديدة من الحياة ، بحثاً عن الإغراب وشد المقابل والتأثيرفي السامع حتى إن المتصفح لديوان شعر العرب لايجد عناءً في اكتشاف هذه الظاهرة ، حتى عند الشعراء الذين يطلق عليهم شعراء الحكمة والذين يُفترض فيهم العناية بالحقيقة والصدق والمنطق، لأن ذلك من لوازم الحكمة التي تعني - من ضمن ماتعني - وضع الشئ في موضعه . . .

ومن أمثلة هؤلاء شاعر العربية المفلق أبي الطيب المتنبي : الذي أغرق في الفخر بنفسه ، والمديح لغيره

مستجدياً، فمن ذلك قوله :

عدوك مذمـوم بكل لســـــــــان
وإن كــــان من أعدائــك الثقــلان

وقـــوله :

أنــا في أمـة تداركهـــا اللـــــــــه
غـــريب كصـــالح في ثمـــــود

وقوله في ممدوحه :

فلقــد دهشـــت لما فعلت ودونـــــه
ما يدهـــش الملكَ الحفيظَ الكاتبـــا

وهذا وبابته كثير مثير أورث عند الناس مزاجاً يستأنس بالمبالغة وينجذب إلى خيالاتها وأوهامها . .

وإن كان لذلك حظ من القبول في مجال الشعر لكونه ساحة الخيال الخصيب ، إلا أنه ممقوت لأمرين :

الأول : أن تكرار ذلك يطبع الحس العام بطابع الانتفاخ الأجوف فيصح عندهم - ولو في الذوق الفني - أن يكون العاشق ذابلاً مضمحلاً ، والشجاع باسماً منشرح الصدر والموت يتخطف الرجال من حوله كما قال الشاعر :

وأوسع مـا تلقـاه صـدراً وخلفـه
دمـاء وطعن والأمـام ضـرابٌ

والحزين سالت دموعه أنهاراً يسبح الناس فيها، وجيش الممدوح طبّق الأرض شرقاً وغرباً بل وصل إلى الجوزاء فاقتادها بزمام.

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه
وفي أذن الجـوزاء منه زمـام

الثاني: أنه يفرغ القدرات النفسية والاجتماعية في إناء المبالغة الأجوف، فيكفي المبجل الممدوح أنه يقال له:

عـدوك مـذمـوم بكل لسـان
وإن كـان من أعـدائك الثـقـلان

فما دام أنه كذلك فلا حاجة له أن يتقدم إلى سؤدد حقيقي أو مجد مُؤثّل يجرّه لقومه أو يجريه في أودية أمته، بل لا حاجة لديه أن يصلح من شأنه أو أن يراجع نفسه لأنه ممدوح بكل لسان وعدوه مذموم بكل لسان، فيكفيه ذلك، ويكفي الأتباع.

وهذا مثال واحد يدل على ماقصدناه من أن المبالغة التي

تشيع في المجتمع حتى تصبح مقبولة مرغوبة غير مستنكرة تؤدي إلى إفراغ الطاقات العاطفية والعقلية والقدرات العملية في أجواء البهرجة والزركشة اللفظية أو المعنوية لتصبح بعد ذلك أشبه ماتكون بفقاعات الصابون أو مُعبّاءات البالون .

ولاريب أن للخيال دور في توليد المبالغات والأكاذيب واختـراع ألوان الإغـراق والغلو، وفي ذلك شئ من المتـاع الفني والتذوق الأدبي ، وهذا معروف في آداب الأمم ، غير أنه يصبح لوناً من ألوان الترف المعرفي والاستهلاك العاطفي . . والتنفيس الوجداني . . ويصبح - هذا هو محل الخطر - مغالباً للعقل متقدماً بين يدي البرهان والحقيقة، موصلاً إلى الجـزاف في الأقـوال والأحكام، ومنتـجـاً من ألوان الزيف والاضطراب والاندفاع والتحكم والمصادرة مايجعل الحقيقة تذوي في زوايا الإهمال .

إن روح المبالغة تظهر في حياة الناس في كثير من الأمور وتظهر علاماتها في عديد من مجريات الحياة :

كالولائم ومايحيط بها من إسراف ، والأعراس ومايحفها من تبذير، والاحتفالات ومايغطيها من بهرجة وانتفاش، كل هذه وغيرها من علامات سيادة روح المبالغة ،

بل إنك لتجدها حتى على المستويات البسيطة ، فمثلاً تجد بائع الخضروات ينادي في السوق : « أحلى من العسل يارمان » فهو لم يجعل الرمان في مستوى العسل حلاوة بل هو أحلى من العسل ، « ومن الهزل والكذب ترانا مبالغين في كل شيئ ، حتى ليكون لنا الواحد كالآحاد في غيرنا فنجعله مائة بصفرين ، نجيء بأحدهما من اعتيادنا الكذب على الحقيقة ، ونجيء بالآخر من حقيقة إفلاسنا .

هذه مبالغة خطرة ، وأخطر مافيها أننا بها نريد المبالغة في الدلالة على الأشياء ، فتنقلب مبالغة في الدلالة علينا نحن ، وعلى كذب طباعنا وعلى فوضى العقل فينا . . . إن الأمة لن تكون في موضعها إلا إذا وضعت الكلمة في موضعها ، وإن أول مايدل على صحة الأخلاق في أمة كلمة الصدق فيها والأمة التي لايحكمها الصدق لاتكون معها كل مظاهر الحكم إلا كذباً وهزلاً ومبالغة »(١)

وإذا كانت المبالغة سلبية خلقية في كل الناس فهي لأطباءالنفوس وخبراء الخير والحق والفضيلة - الدعاة والعلماء ونبلاء المسلمين - مرض خلقي خطير وثغرة كبيرة

(١) وحي القلم ٢/ ٤٦٤ - ٤٦٥ .

في جـدار بنيـانهم ، لأنهم هم ملح البلد ، ومن يصلح الملح إذا الملح فسد ؟ !

وإذا عدنا إلى المبالغة في ذاتها والتأمل فيها وفي أسبابها وأسباب مرادفاتها كالتهويل وتزييف الواقع والتطرف في الأحكام والشطط والادِّعاء والتضخيم والتفخيم وغير ذلك من أضداد الدقة والموضوعية والحياد العقلي والاتزان العلمي والحقيقة والبرهان ؛ فإننا نجد أن من أسباب كل ذلك مايلي :

١ - عجز الإنسان عن رؤية الواقع كما هو عليه :

إما لقصور في إدراكه أو لغلبة نوازع الذات والنفس المستعلية .

٢ - الافتقار إلى روح الموضوعية :

التي هي سمة من سمات أهل الاعتدال والإنصاف قياماً بالحق والعدل على أنفسهم والآخرين ، وعلى قدر تحلي الإنسان بالموضوعية تكون استقامة أحكامه ومعاييره وآرائه ، كما أنه على قدر تخليه عنها أو ضعفه فيها تكون سطوة النفس المبتورة والأحكام الجائرة والمبالغة بالزيادة أو النقصان تقديساً أو تدنيساً .

٣ - إدخـال الأهـواء والعــواطف في النظر إلى الآخـرين وأعمالهم:

فإذا تدخلت الأهواء اهتزت الموازين واضطربت الحقائق في نفس صاحب الهوى حتى تهوي به بعيداً عن الحقيقة واليقين، وكذلك إذا تدخلت العواطف .

فكم من مشكلة أمكن حلها بأيسر مايكون لو أن الأهواء والعواطف نُحِّيت جانباً ، وكم من حقيقة غُمطت تحت غبار الهوى والعاطفة ، وكم من مأساة كانت في أول أمرها يسيرة صغيرة فغذتها أهواء الأنفس ورعوناتها حتى تضخمت وأعجزت الحلماء عن الحل .

٤ - فقدان الاتزان والاعتدال والتكامل .

ومن أعظم نعم الله على الإنسان في عقله وعاطفته أن يكون سوياً معتدلاً، لا إفراط ولا تفريط، يعطي كل مقام حقه. وأحسن نموذج لهذا هو نبينا محمد ﷺ، ففي سيرته وسنته والشرع الذي جاء به من عند ربه تعالى أعظم منهاج يربي، وينشئ من ضمن ماينشئ في النفس والمجتمع قواعد التكامل والتوازن والاعتدال ، ومن لم يفهم ذلك من دين الله الذي ﴿**أنزل الكتاب بالحق**

والمـــيزان﴾[١] فإنه لم يفهم على الحقيقية حيزاً كبيراً من مقاصد الشرع الحنيف والملة السمحة .

وإن مما يؤسف له أن يوجد في بعض مناهج الدعاة من الغلو والتجاوز في المسائل العلمية والقضايا الحكمية والأمور العملية مايدعو إلى العجب والشفقة على هؤلاء الذين سلكوا مسالك الإجحاف والاضطراب ظانين أنهم أهدى من الذين مَنَّ الله عليهم بنعمة الاتزان والاعتدال .

ولا غرو أن يكون في كل أمة وفي كل مجتمع وفي كل فئة من البشر فئام يغلب عليهم التعجل والانسياق في أودية الشطط ، ولكن ذلك إن كان له وجه قبول في سائر الناس فلا وجه لقبوله بين أطباء القلوب والعقول والأرواح ، ولكن الحقيقة المرة تقول بأن أعظم العداوات والثارات والمشكلات هي تلك التي تنشأ بين أهل العلم وطلابه، ولعل فقدان الاتزان ونقصان التكامل من أهم أسباب ذلك .

نعم إن للنفس البشرية أحوالاً وطبائع، من غضب وحدة وحلم ولين وأناة وعجلة، وغير ذلك مما له كبير الأثر في اتزان الشخصية أو اعتلالها، ولكن هل من شأن المسلم أن يسترسل مع طبائعه دون أن يزْمها بزمام الأمر والنهي ؟

(١) الشورى: ١٧ .

نعم نحن في أول عهد صحوة وأوبة إلى الدين تسارع الناس فيه ـ خُصوصاً شَرْخُهُم ـ إلى الاستمساك والإذعان لأوامر الدين والحرص على حماية جنابه من المغتدين والمنافقين والتلهف إلى إعادة النائين إلى صراطه المستقيم، وفي ذلك من دواعي التعجل وانتهاز الفرص ، ما لعله يفوت على البعض قدرتهم على التحرك الموزون فكراً أو عملاً ، وهو حال أشبه بحال النهر عند مصبه فيه من الهيجان والاضطراب والأخلاط والاندفاع والقوة الشيء الكثير، حتى إذا استمر النهر واستقر أمكن حينئذ أن يستخرج منه بعد الهدوء جداول تسقي وتروي من غير إفساد ولا تدمير .

وليس هذا المقال تبريراً لعدم الاتزان ولكنه وصف لحال لابد من إدراكه وإدراك نتائجه وآثاره .

ولا تكاد تجد مبالغاً إلا وفيه نقص في اتزانه واعتداله وتكامله إما على الجملة في شخصيته ونفسيته وإما في ذات القضية التي تناولها بالمبالغة والتهويل .

٥ - ضعف ضبط النفس :

هناك من يسترسل مع نفسه وينساق مع طبعه انسياقاً يقوده إلى مفاوز مهلكة من الأخطاء والمعايب ليس آخرها

المبالغــــــة إذ :

النفــس كالطفل إن تهملــه شـــبَّ على

حب الرضـــاع وإن تفطمـــه ينفطــم

وما ميزة الإنسان على غيره إلا أن لديه القدرة والإرادة على ضبط نفسه ، ولذلك أناط الله به التكليف وأمره ونهاه ووعد المحسن بالثواب والمسيئ بالعقاب .

ومن خف ضبطه لنفسه جرجرته وأركسته ، وانفلتت به في وحول المبالغة أو التقصير بحسب الرغبة والهوى لا بحسب مايقتضيه الحال من صدق ودقة وواقعية .

٦ - العقلية الانفعالية الاندفاعية :

لقد خلق الله الخلق بأشكال شتى ونفسيات مختلفة وأخبر سبحانه بأن أعمال الإنسان كذلك فقال﴿ **إن سعيكم لشتى**﴾(١) .

ففي الناس الحليم المتأني ، وفيهم الطائش المتعجل كما أن فيهم الأحمق الذي لسانه وتصرفه قبل قلبه وعقله ،

(١) الليل : ٤

وفيهم العاقل الذي رأيه وحنكته قبل قوله وفعله، ومن شأن صاحب الانفعال والاندفاع أن ينحدر في مهاوي الأخطاء والمثالب ثم يندم ولات ساعة مندم ، ولو زمَّ نفسه قليلاً وتريث ولم يعجل لأفلح ولم يندم؛ ولذلك أمر الدين القويم بإصلاح النفس وتهذيبها فنهى عن الغضب وأخبر رسولنا ﷺ بأن الكيّس الشديد من الرجال هو الذي يملك نفسه عند الغضب، وليس الذي يصرع غيره ويتغلب عليه [(١)]، وأخبر أشج عبد القيس بأن فيه خصلتين يحبهما الله « الحلم والأناة» . [(٢)]

ومن الملاحظ في أحوال الناس أن الحليم المتأني أقرب إلى الدقة والموضوعية في أقواله وأحكامه ، وأن الطائش الهائج أقرب إلى المبالغة والوكْسِ والشطط، وأسرع إلى

---

(١) حديث « ليس الشديد بالصرعة » رواه مسلم في كتابه البر والصلة والآداب ، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب ٤ / ٢٠١٤ - حديث ٢٦٠٩ .

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الأمر بالايمان بالله تعالى ورسوله وشرائع الدين ١/ ٤٨ حديث رقم٢٥

كلامٍ وفعل يحتاج بعده إلى اعتذار وتلفيق وترقيع، وربما تحدَّر إلى كذب ومعاذير باطلة ولهذا قال النبي ﷺ: «ولاتتكلم بكلام تعتذر منه» (١).

٧ - وزن الأمور بموازين ذاتية :

هناك أمور تخضع للموازين الذاتية إذ ليس لها شرط موضوعي، كالأمور الجمالية والقضايا الذوقية مادامت في دائرة المباح ، ففلان يحب اللون الفلاني أو يأنس لصوت القارئ الفلاني دون غيره، أو تعجبه رائحة عطر ما ، أو يميل لطعام أو شراب معين أكثر من غيرهما ونحو ذلك فلا تثريب في هذه وأضرابها لأن شرطها وقاعدتها ذاتية وليست موضوعية .

أما ماله علاقة بالأحكام والشرع والمسائل العلمية والعملية وأمور العلاقات بين الناس ومعايير المدح والقدح وموازين الحسن والقبح والمعروف والمنكر والحسنة والسيئة والمصلحة والمفسدة فإن هذه جميعها مفتقرة إلى الموضوعية ولها من الشروط العلمية : الشرعية والعقلية ، والضوابط البرهانية مايجعلها في إطارٍ من تجاوزه أو أهمله فإنه يقع في

---

(١) أخرجه أحمد وابن ماجه عن أبي أيوب، انظر صحيح الجامع حديث رقم ٧٤٢ ، ج ١ .

التطفيف بالمبالغة والاستيفاء إذا اكتال لنفسه، وبالبخس والإخسار إذا كال للآخرين .

٨ - التهاون والاستخفاف بالحقيقة :

الحقيقة غالية وثمينة عند أصحاب العقول السليمة والنفوس القويمة حتى وإن كانت الحقيقة في غير صالحهم ، أما غيرهم فلا يبالي بالحقيقة ولا يلتفت إليها فيخدع نفسه ويخدع الآخرين ، وما الحيل النفسية التي يمارسها الإنسان على ذاته ، والخدع التي يجريها على غيره إلا من قلة احترامه للحقيقة واستخفافه بها .

ترى حادثة معينة ثم تسمع وصفها من بعض المبالغين فتسمع شيئاً عجيباً ، تود معه أنك لم تر الحادثة لتستمتع برواية هذا القاصّ والروائي الكبير ، لأنه قد زاد من خيالاته وأفكاره وأضاف من كيسه وجرابه أشياء لم تحدث ؛ لاستهانته بالحقيقة وضعف نفسه عن تحملها كما هي ، فيزركش الصدق بأكاذيب تودي بجماله ، ويلوث الحق الصريح بمبالغات من عنده وإضافات يسمعها آخر فيضيف ثم آخر وهكذا كلما اتسعت الدائرة بعدت القضية عن حقيقتها لتدخل في عالم الأوهام والإضافات الذاتية لتصبح

بعد ذلك ضرباً من ضروب الافتراء لما مازجها من أخلاط طغت عليها فأودت بها .

فمتى تصبح الحقيقة في النفوس والعقول غالية القيمة عالية المنزلة عند الدعاة والمربين ؟ ويدعون إلى احترامها ويربون الناس على التزامها ، ويتمثلون ذلك في حياتهم وسلوكهم مع أنفسهم ومحبيهم ومبغضيهم ؟ .

هل صح قول من الحاكي فنقبله
أم كل ذاك أباطيل وأسمار
أما العقول فآلت أنه كذب
والعقل غرس له بالصدق إثمار(١)

٩ - التهاون والاستخفاف بالآخرين :

من أسباب المبالغة أن الشخص المبالغ ينظر إلى الآخرين بعين الازدراء والنقصان ولو بشكل ضمني غير مقصود ، ودليل ذلك هذا التهويل والتضخيم ، لأنه لو كان يحترم عقولهم لصَدَقَهم وآتاهم الحقيقة على وجهها من غير تزييف ، فقد يرى أنهم لاينجذبون إليه أوإلى مايتكلم به إلا

---

(١) لأبي العلاء المعري .

بعد أن ينفخ الحوادث ويفخم الأقوال . ومن يحترم سامعيه ويجل عقولهم فإنه لايزيد ولايبالغ .

١٠ - حب التفاخر والتباهي :

هذا سبب كبير من أسباب المبالغة ، إذ أثبتت تجارب الملاحظين أن الإنسان المحب للفخر والمدح مبالغٌ ، ولو لم تثبت التجارب ذلك لكان من المعلوم عقلاً أن من يحب الفخر والتباهي لابد أن تكون فيه نزعة المبالغة ؛ لأن نفسه المتشبعة بهذه البلية لابد أن تبحث في شعاب المبالغة عما يشبعها .

ومن أوضح الأمثلة على ذلك النساء والزعماء ، الذين لديهم ـ بسبب حب التفاخر والتباهي ـ الميل إلى المبالغة والأكاذيب والانتفاش الأجوف والتضخيم الفارغ .

ولاشك أنه يوجد في بعض الدعاة والمربين هذه الطبيعة - للأسف - فحين تسمع داعية بمناسبة وبغير مناسبة يشير إلى ذاته أنه فهم القضية الفلانية وأشبعها بحثاً وكلاماً قبل أن يتنبه لها أحد ، أو أنه سبق له أن كتب فيها أو تحدث عنها بما

لا يوجد عند غيره ، وأحياناً تجده يكتب في كتبه ورسائله هوامش تدل على كتب أخرى له مشفوعة بعبارات «فإنك لن تجده في غيره» أو «انظر تفصيل ذلك في كتابنا المتفرد كذا وكذا» أو «اقرأ ذلك في رسالة كذا فإنه لا يوجد مثلها في بابها» ونحو ذلك من عبارات التمدّح وإطراء الذات أو المذهب أو الشيخ التي ينكشف زيفها عند من اطلع على أجود وأفضل مما أشار إليه وتمدّح بانفراده .

وحتى وإن كان الذي قاله حقاً فإنه يجب أن يشير إلى ذلك بعبارات لا تنم عن التعالي والفخر ، فقد أخبر النبي ﷺ بأنه سيد ولد آدم ثم أعقب ذلك بقوله «ولا فخر»(١) .

والمقصود أن الفخر من أسباب المبالغة ، وهذا يكثر - إضافة إلى من ذكرنا آنفاً - في أبناء القبائل وأصحاب البيوتات الرفيعة عند الناس ، وذوي المناصب الدينية أو الدنيوية إلا من رحم الله ، وظواهر التباهي والمبالغة عديدة

---

(١) حديث «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» رواه الترمذي في كتاب المناقب عن رسول الله باب فضل النبي ﷺ ٥ / ٥٤٦ حديث ٣٦١٠ .

كثيرة تبدأ من التصورات والأفكار وتنتهي إلى التصرفات والعبارات .

ومن لوازم الغرور والكبرياء هذا التباهي والتفاخر الذي يرى صاحبه أنه لايشبعه إلا بإضافة هالات تهويل ومبالغة ؛ لسد ثغرات نقصه المستديمة .

١١ - الميل نحو أحلام اليقظة :

مما يجعل روح المبالغة تسيطر عليه ؛ لما في الذهن من قدرة على التجوال في أودية الأوهام ، فيتجاوز هذا الحالم الحقيقة والواقع ، ويكون لديه الاستعداد للخلط بين الواقع وأحلام اليقظة ، وأساس ذلك عجز هذا المسكين عن التكيف مع الواقع ، أو التصدي له بعمل مثمر ، فينفس عن نفسه بهذه الأخلاط رغبة في إضفاء نعوت الإنجاز والفاعلية إلى نفسه الضعيفة التي لم تستطع أن تقوم بدور إيجابي فعّال ، أو عجزت عن تحقيق طموحات رسمها لنفسه هي أكبر بكثير من إمكاناته الحقيقية .

ولربما انتقل من أحلام اليقظة إلى أحلام المنام فينطبع في حسه مايفكر به فيراه ـ على إثْر حديث النفس ـ في منامه فيبني على ذلك أحكاماً وأموراً أساسها التوهم .

أعرف من يطمح أن يكون مؤلفاً شهيراً ، وهو في الحقيقة لايمتلك القدرة على ذلك لاوهباً ولاكسباً ، ولايزال يحدث نفسه بذلك ويسترسل مع أمانيه فإذا وجد فرصة مناسبة للكلام عن قضية كان قد سمعها أو قرأها اهتبل ذلك تلقائياً وذكر بأنه قد كتب في هذا الموضوع كتابة مفصلة جيدة ولكن الكراس ضاع منه يا للأسف ! !

وهو في الحقيقة لم يكتب ولكنه مع استرساله في أمانيه وميله إلى أحلام اليقظة تكونت لديه النفسية القابلة لهذه المزاعم ، والجريئة على التحدث بها .

أما أحلام المنام فتكثر عند الطامح إلى أمور كبيرة وليست لديه أسباب تحقيقها ، فينعكس ذلك على نفسه في الأحلام فيرى أن أموره هذه تحققت أو سوف تتحقق في ظروف كذا وكذا . . وهنا لا أتكلم عن الرؤيا الصادقة والمبشرات ، وإنما أتكلم عن حديث النفس وأحلام اليقظة وكيف تؤثر في إيجاد بذرة المبالغة وسقيها .

وأمثلة سيطرة أحلام اليقظة أو المنام على نفوس بعض الناس عديدة ، منها أن أناساً تضايقوا من وجود حاكم من الحكام ، وأصبحوا يتحدثون عن أمراضه وقرب وفاته ، فإذا

بكثير منهم يرى في المنام أنه سيموت في شهر كذا أو قبل شهر كذا، ثم يؤولها لهم أحد ممن على شاكلتهم، فيجزمون أنه لايصلي العيد مع المسلمين، ويؤكدون بأن هذه الرؤى تواطأت وأنه لايمكن تكذيبها أو جحدها، ولايمكن التشكيك في حصولها، فما الذي حدث؟ لقد صلى ذلك العيد وأعياداً أخرى بعده وآخرون ثقل عليهم مايعانيه المسلمون من اليهود فطاشت نفوسهم إلى أحلام رأوا فيها أن معارك واجتياحات يهودية لبلدان المسلمين سوف تحصل في عام كذا وكذا، وبدأوا يضعون الخطط والاستراتيجيات والتوقعات لمواجهة هذا العدوان في هذا التاريخ .. وكم من رؤى يقظة أو منام بالغ في تقديرها الإنسان، وهو لايعلم أنها من حديث النفس أو من تلبيسات الشيطان، فجرته إلى مهاوي وبلاوي، والله المستعان.

وعلى كل حال فالمبالغة داء شائع في كثير من الناس، وفيها دلالة على أن المبالغ يحاول إثبات الحقيقة المهزوزة. أو الزور المدعى. ولكن أن تتسرب المبالغة إلى الدعاة والمثقفين وإلى المربين والمؤثرين في الأمة فذلك دليل خطر على الأمة.

تسمع في الإعلام وصف بعض القرارات أو الأحداث

على أنه قرار مهم وحدث خطير ولقاء تاريخي ، وحين تنظر تجد أن كل ذلك دون هذه العبارات الفخمة بكثير ، فربما كان القرار يتعلق ببعض الأمور الاستهلاكية البسيطة ، والحدث مباراة رياضية واللقاء التاريخي لقاء لاعب مع لاعب آخر ، أو مغن مع مغنٍ أو حتى لقاءً عادياً بين زعيمين أو وزيرين أو وفدين أو أكثر .

ومن أظهر ممارسات المبالغة مايتعلق بالحكم على الآخرين مدحاً أو قدحاً ، هذا يمدح حتى يوصل ممدوحه إلى ذرى الجبال ، وذاك يذم حتى يوصل مذمومه إلى حضيض الإهمال .

ولاتفتأ تسمع بين شباب الصحوة من يصل في تقديره لمن يحب أو يبغض إلى تلك الدرجات من المبالغة علواً أو نزولاً من أمثال : فلان ابن تيمية عصره أو ابن حجر زمانه ، وهذا العز بن عبد السلام في وقته ، إلى غير ذلك من عبارات المدح ، أما في القدح فيقال : فلان رجل خائن ، أو فاسد العقيدة ، أو شر على المسلمين من اليهود والنصارى ، أو خرافي بدعي ، أو ضال مضل ، إلى غير ذلك من عبارات الشتم التي تقال في أناس لهم في الإسلام قدم صدق ، وأقل مايقال فيهم - على سبيل التنزل والافتراض -

أنهم مستوري الحال .

إن وضع الكلمة والحكم والوصف في مواضعها وعلى بساط الدقة والموضوعية ليدل دلالة واضحة على سلامة القيم الخلقية والمعايير العدلية لدى الفرد والفئة والأمة ، وإن انعكاس ذلك واللجوء إلى المبالغات والتفخيم في الأحكام والتضخيم في مايُتناول من أمور ليدل على إفلاس وانحدار في الفرد أو الطائفة أو المجتمع أو الأمة .

ومما يدرك بداهة أو بعد طول تأمل أن المتكلم بالإنصاف والمتحري للحق وإن كان ضده ، والواضع للحقائق في نصابها ، محمودٌ وحَريّ بأن ينال في الدنيا النصر وإن لم يكن مؤمناً ، فإن تحلّى مع هذه النعوت الراقية بالإيمان فجدير بالأجر والنصر ، وحقيق بوصف الاتزان في الشخصية والصحة في العقل والاستقامة في النفس ، والعكس بالعكس فالمبالغة بما تحويه من تهويل وادعاء وانتفاخ وانتفاش أو غمط وتبخيس ؛ لتدل على فقدان روح الاتزان والاعتدال والتكامل الشخصي والنفسي ، وتدل على الخلل الخلقي والسلوكي ؛ لما في المبالغة من تزييف للواقع وإضفاء مسوح الكذب على الكلام والأحكام والمظهر لِيبْهر المقابل أو يشده إليه .

تلتفت إلى المثقفين والمؤلفين فتجد من ألوان التطرف والتهويل مايُخجل فهذا يقرأ كتاباً فيعجبه فيؤكد أنه عديم المثال صعب المنال لم تخط مثله يد، ولم يكتب أحد مايشبهه أو يدانيه ، فإذا اطلعت عليه وجدته لايستحق نصف هذه الأوصاف ، وذاك ينظر في عنوان كتاب وربما في مقدمته وفهرس محتوياته فيحدثك عنه حديث القارئ المتضلع ، فإذا افتُضح بين يدي من تفحص الكتاب اعتذر ببعد زمن اطلاعه، وآخر يضرب في المجالس في فنون العلم في كل فن بسهم، ويستخرج للسامعين من كل قطرة بحراً من العلوم والفهوم، ويخوض فيها خوض البصير الخبير، فهو المفتي والطبيب والفلكي وخبير الطيران والمهندس والجيلوجي والخبير في علم الهوام والدواب والحشرات إلى آخر ماهنالك من ادعاءات ، وتزداد وقاحته على العلوم وأهلها إذا شعر بأن السامع من محدودي الثقافة ، أو من الدهشين عند سماع مالم يألف أو يعرف ، أما إذا فوجئ هذا المدّعي المبالغ بمثقف حقيقي، أو متخصص ثَقِفْ فليس أمامه سوى الروغان والمعاذير التي يحاول أن يغطي صورته المهزوزة ، وهناك من تتوارد على ذهنه خواطر الإشادة بنفسه في كلام قاله أو كتبه ، فإن جرى حديث عن قضية أو فن أو مسألة

أخبرك بمناسبة وبغير مناسبة أنه قد أشبعها بحثاً في كتاب كذا الذي ألفه أو سوف يؤلفه أو في كلامه الذي قاله أو سيقوله!! وربما توجه ناصحاً أو ناقداً للآخرين بأنه سبق له أن بيّن نتائج هذه الحادثة أو تلك، وذكر أن توقعاته حصلت كما توقع، وحين يرجع السامع بذاكرته إلى الوراء لايجد فيها أدنى شيء فإنه لما ذكر هذا المُبَالِغ، وربما التبست عليه الرؤية بسبب قرب الحادثة وَتَداُخلِ أمورها فظن أن ماقاله صاحبه «المُبكِّتُ» صحيحاً، وفي الحقيقة أن المبالغ انتهز هذه الفرصة التي تغيب فيها الحقائق وراء غبار الحادث المستَجدِّ فأنزل صواعق مبالغاته ونوافخ طبوله.

وعلى كل حال فالمبالغة تستحق أن تفرد بكلام وتأليف خاص، لتخليص الأمة من أضرارها وعواقبها، سواء كانت حديثة معاصرة أو قديمة مأثورة.

وقد انتقد سلفنا مبالغات قيلت وخطّأوا قائلها، فمن ذلك ماجاء في سير أعلام النبلاء في ترجمة حماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة رحمهما الله تعالى قال الذهبي رحمه الله تعالى: «عن مغيرة قال: حج حماد بن أبي

سليمان فلما قدم أتيناه نُسَلّم عليه فقال : أبشروا يا أهل الكوفة ، فإني قدمت على أهل الحجاز فرأيت عطاءً وطاووساً ومجاهداً فصبيانكم بل صبيان صبيانكم أفقه منهم. قال مغيرة: فرأينا أن ذاك بغيٌ منه» [(١)] .

وعندما عرض الذهبي رحمه الله لبعض أقوال السلف وفيها مبالغة تعقبها بالشرح والتبيين والنقد، ومن ذلك في سير أعلام النبلاء في ترجمة الإمام مسروق بن الأجدع رحمه الله تعالى قال: «من سره أن يعلم علم الأولين والآخرين وعلم الدنيا والآخرة فليقرأ سورة الواقعة » .

[قلت - القائل الذهبي رحمه الله تعالى - هذا قاله مسروق على المبالغة لعظم ما في السورة من جمل أمور الدارين ومعنى قوله: فليقرأ الواقعة أي بتدبر وتفكر وحضور ولا يكن كمثل الحمار يحمل أسفاراً] [(٢)] .

وفي ترجمة الإمام الشافعي رحمه الله تعالى نقل الذهبي قول يونس بن عبدالأعلى في الشافعي « لو جمعت

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٣٥ .

(٢) المصدر السابق ٤/ ٦٨ .

أمة لوسعهم عقلُه » قال الذهبي وهو شافعي المذهب بعد نقله الكلام السالف : [قلت : هذا على سبيل المبالغة فإن الكامل العقل لو نقص من عقله نحو الربع لبان عليه نقص ما ولبقي له نظراء ، فلو ذهب نصف ذلك العقل منه لظهر عليه النقص ، فكيف به لو ذهب ثلثا عقله ! . . . .] [1] .

ونقل في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى قول محمد بن مصعب العابد رحمه الله تعالى [لسوط ضُربه أحمد بن حنبل في الله أكبر من أيام بشر بن الحارث] .

فتعقب الذهبي هذا القول فقال : [بشر عظيم القدر كأحمد، ولاندري وزن الأعمال، إنما الله يعلم ذلك] [2] .

ثم نقل قول الإمام الذهلي رحمه الله حين بلغه وفاة أحمد رحمه الله فقال : [ينبغي لكل أهل دار ببغداد أن يقيموا عليه النياحة في دورهم . قلت - القائل الذهبي - تكلم الذهلي بمقتضى الحزن لابمقتضى الشرع] [3] .

وكذلك نقل في ترجمة الإمام أحمد رحمه الله تعالى

---

(١) المصدر السابق ١٠/ ١٥ .

(٢) المصدر السابق ١١/ ٢٠١ .

(٣) المصدر السابق ١١/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

قول رجل : [عندنا بخراسان يظنون أنه من الملائكة ، وقال آخر : نظرة عندنا من أحمد تعدل عبادة سنة . قلت - القائل الذهبي - هذا غلو لاينبغي لكن الباعث له حب ولي الله في الله] (١) .

وفي ترجمة الإمام أبي يوسف الفسوي رحمه الله تعالى قال «وروى عن الحافظ أبي عبدالرحمن النهاوندي أنه سمع الفسوي يقول كتبت عن ألف شيخ وكسر كلهم ثقات» .

[قلت : ليس في مشيخته إلانحو من ثلاث مئة شيخ ، فأين الباقي ؟ ثم في المذكورين جماعة قد ضعفوا] (٢) .

وفي ترجمة الإمام أبي داود سليمان بن الأشعث صاحب السنن رحمه الله تعالى ذكر أبو داود وعدد ماجمع من الأحاديث وعدد ما انتخب منها في السنن ثم قال [. . . ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث أحدها قوله ﷺ : « الأعمال بالنيات » . والثاني : «من حسن إسلام المرء تركه ما لايعنيه » . والثالث : قوله « لايكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه مايرضى لنفسه » . والرابع : « الحلال بين » .

(١) المصدر السابق ١١ / ٢١١ .

(٢) المصدر السابق ١٣/ ١٨١ .

الحديث. تعقب الذهبي هذا القول فقال : قوله: يكفي الإنسان لدينه ممنوع بل يحتاج المسلم إلى عدد كثير من السنن الصحيحة مع القرآن] (١) .

ومن نقده الدقيق وميزانه العادل ما جاء في ترجمة الإمام أبي منصور الخياط أن ابن النجار نقل في تاريخه [«أن أبا منصور الخياط بلغ عدد من أقرأهم من العميان سبعين ألفاً». قال الذهبي قلت : هذا مستحيل والظاهر أنه أراد أن يكتب نفساً فسبقه القلم فخط ألفاً ، ومن لقن القرآن لسبعين ضريراً فقد عمل خيراً كثيراً] (٢) .

وفي ترجمة ابن الجوزي رحمه الله ذكر الذهبي قول من قال [بأنه كان يجتمع في مجالس وعظه مايقدر بمئة ألف - ثم قال - ولاريب أن هذا ماوقع ، ولو وقع لما قدر أن يسمعهم ولا المكان يسعهم] (٣) .

وللذهبي عباراته الدقيقة وتعقباته النافعة في أمور الجرح والتعديل وخصوصاً في ميزان الاعتدال فرحمة الله

---

(١) المصدر السابق١٣/ ٢١٠ .

(٢) المصدر السابق ١٩/ ٢٢٣ .

(٣) المصدر السابق ٢١/ ٣٧٠

عليه من إمام أحيا سنة العدل والإنصاف ورفع لواء القسط والحق ، وابتعد عن مهاوي الهوى وشطحات الغلو والمبالغة ، وكيف لا وهو سليل مدرسة الحديث المباركة وتلميذ سيد المنصفين في زمانه شيخ الإسلام ابن تيمية عليهم جميعاً رحمة الله ورضوانه .

وإنما سقت هذه المقتطفات من أقوال الإمام الذهبي لتبيان أن نقد مسالك المبالغة وتزييف عبارات الغلو والمجاوزة ، كان من دأب علماء الإسلام الربانيين ، ومن مناهج أهل العلم والدين .

(٣)

العاطفية المتطرفة

العاطفية ليست مرفوضة بإطلاق وليست مردودة بالكلية ، لأنها حقيقة موجودة في أنفسنا ، فقد خلقنا الله بعواطف كما خلقنا بعقول ، وحاجة الإنسان للعاطفة حاجة قوية ومتأصلة وممتدة من طفولته حتى شيخوخته ، ولا يمكن أن تزال أو تنفى .

ولقد تخبطت الفلسفات العقلانية في تعاملها مع الإنسان على أنه عقل فقط . . ولم تستطع أن تمنح الإنسان ماكانت تدعيه من مدن فاضلة أو حياة سعيدة .

أما الإسلام فقد جاء ليربي الإنسان في جميع جوانبه ويخاطب عقله وعاطفته . . يقنع العقل ويحرك العاطفة ، ينير العاطفة بأنوار العقل ويلهب العقل بنيران العاطفة ويوازن بين كل منهما ، فلا يطغى جانب على جانب ولايغالب بينهما بل يجعلهما في سياق واحد متوازن يعمل كل منهما في مجاله ويوجهه في اختصاصه .

إذا نظرنا إلى العاطفة في النصوص الشرعية وجدناها قد أخذت مكانها وأعطيت مجالها فنصوص الوعد والوعيد ـ مثلاً ـ مليئة بمخاطبة العاطفة، كنصوص الرجاء والترغيب في الجنة والتحبيب فيها وذكر أوصافها ودرجاتها ومنازلها ونعيمها وألوان فواكهها وشرابها ومنازلها وغير ذلك، ونصوص التخويف من النار ومن هولها وجحيمها وسمومها وعذاب أهلها ونحو ذلك، هذا كله مما يخاطب فيه الوحي العاطفة ويستجيشها ويحركها، مع إقناع العقل والتأكيد بالبرهان، ومثل ذلك النصوص الحاثة على الخير والمحذرة من الشر.

إذن فليست العاطفة ومايبنني عليها سلْبٌ محض، وإنما السلب فيها أن تتغلب العاطفة على العقل، وأن يؤتى بها في المقام الذي يحتاج إلى برهان ودليل، وأن توضع في غير موضعها أو يتجاوز بها صاحبها حدودها أو أن تطغى عليه حتى يصبح عقله في أحبولتها فهذه هي « **العاطفية المتطرفة** ».

ننظر إلى الشرع الحنيف فنرى أنه قد جاء بضبط أهم عاطفتين في الإنسان، عاطفتي الحب والبغض اللتين لهما التأثير الواسع على كثير من أحوال الإنسان

وتصرفاته وأفعاله .

فلم يتركهما الإسلام هملاً ولم يدعهما سدى بل جعل لهمـا الحـدود والضـوابط الشرعـية التي ترشـدها في سيـرها ضمن إطار صحيح نافع ، بعيداً عن مجازفات الحب المفرط أو البغض المفرط ، كما هو حال أهل الإفراط في العواطف .

إن أكثر الناس تسيطر عليه في موازين علاقاته عاطفة غير متزنة ومشاعر غير منضبطة ، ولهم في أودية العاطفية مراتع كثيرة ، وإن يكن لهم بسبب الجهل والغفلة عذر فإن أطبـاء القلوب والنفـوس من العلمـاء والدعـاة والمصلحين لاعـذر لهم وقـد تبين لهـم الحق وعـرفـوا مـوازين العـدل ؛ ولذلك كانت هذه الكلمات من باب التنبيه لهم على أن هذا المسلك غيـر لائق بهـم ، ومع ذلك فـإننا إذا تأملنا تـصـرفـات بعـضـهـم وجـدنا فـيـهـا من نقـائص هذا التـصـرف مـايدعـو للعجب .

يحب أحدهم مذهباً أو فئة أو شيخاً أو مدرسة أوفناً من الفنون ونحوذلك ، فيتناول محبوبه بالثناء المطلق والتبجيل العام والمدح الدائم مع إغضاء مقصود عن العيوب الظاهرة وتسليم مطلق لما يأتي من هذا المحبوب ، وبحث عن المعاذير والتبريرات لما يصدر منه من خطأ ظاهر .

وفي المقابل تجد صاحب العاطفة المتطرفة في البغض تسيطر عليه عاطفة الشنآن فيذم بإطلاق ويتجانف لعدوان وبغضاء، ويبخس الناس أشياءهم، بل ربما بحث عن العيوب المستورة وقلب المحاسن إلى مساوئ ورد الحق الذي عند المبغوض وتحرى السقطات والزلات وأهدر الإعذار اللائق به وبمبغوضه ، فكأنه يتمثل صفات بعض النسوة اللاتي أخبر عنهن النبي ﷺ بأنهن كافرات العشير، وفسر ذلك بقوله : «لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط» (١).

وكذلك هو صاحب العاطفة المتطرفة ، يرى من المحاسن والفضائل الشئ الكثير فإذا غضب أو تغير مزاجه النفسي طمس كل تلك المحاسن وألغى كل تلك الفضائل وهدم بكلمة متسرعه ما ثَمَّ من نُبْل وجهد وخير، وقال «ما رأيت خيراً قط» .

تسمع من بعض المتعجلين من يصف إخوانه من أهل العلم والفضل أو أهل الدعوة أو أهل الجهاد بأنهم أعداء للشرع والدين والعلم، وتجد من يطلق أن الفئة الفلانية من الدعاة هم خصوم الدين والمنهج القويم أو أن الفئة الفلانية هي

(١) رواه البخاري في كتاب النكاح باب كفران العشير - حديث رقم ٥١٩٧ .

صاحبة المنهج الصائب ومن عداها فإنه ضال مبتدع أفاك .

وتسمع من بعض طلبة العلم من يفضل بعض فنون الشريعة على بعضها تفضيلاً مطلقاً، فصاحب الفقه يدعي ذلك وصاحب التفسير يقول مثله وصاحب الحديث كذلك مع غمط ظاهر أو خفي للعلوم الأخرى مع أنها - لو تأمل هؤلاء بعين العقل - كلها مأخوذة من نبع واحد وتدل إلى طريق واحد .

أما الخلاف في الأشخاص فماأوسع جولات العاطفية وصولاتها فيه، فهذا يحب شيخاً أو قائداً أو مؤلفاً فيضفي عليه من صفات التبجيل والتضخيم مايجعله لايُسامى ولايُضارع .

وهذا يختلف مع شيخ أو قائد أو يخالفه في منهج أو أسلوب فيرمي عليه من عبارات الجرح والطعن مايُخجل .

سمعت أحدهم يصف بعض إخوانه بأنه مبتدع على إثر خصام بينهم، فلما سألته عن دليل تهمته أخبرني بأنه رأى في مكتبته كتب الشيخ الفلاني المبتدع .

قلت : وما أدراك أن هذا الشيخ مبتدع ، قال : هذا أمر معروف وقد تحدث به الثقات !!!

فتأمل هذه الأحكام العاطفية الجزافية، وما أكثر أمثالها.

تقرأ في بعض الكتب أن الدعوة الفلانية هي أم الدعوات ويأتي آخر مناقضاً له فيدعو إلى دعوته على أنها الدعوة الأم صاباً جام غضبه واتهامه على غيره.. وهكذا تتسلسل المآسي حتى لربما تسمع يوماً من ينادي بأن دعوته هي جدة الدعوات أو عمتها أو خالتها ... إلى غير ذلك من مزالق التزييف والتهييج العاطفي الملتهب الذي لايزن الأمور إلا بموازين الرغبة الذاتية التي لاتعترف لأحد بفضل ولاتجعل الحق في نصابه، وإن تلبس صاحبها بلبوس الشرع.

ومن أمثلة العاطفية المتطرفة عند بعض العلماء والدعاة النظر إلى الحكام فمنهم من يرى أنهم بقية الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين، ومنهم من يرى أنهم جميعاً بلا استثناء كافرين مشركين، فإذا نظرت إلى معايير ذلك وجدتها من سلة العاطفة خوفاً أو بغضاً أو رجاءً أو رغبة من رغبات النفس، وإن ألبسها بعضهم بلبوس الدليل الشرعي، نعم ويوجد ـ ولله الحمد ـ من يزن هذا الأمر وغيره بميزان الشرع ويضعه بقسطاس مستقيم في نصاب الحق المبين ويقول لكلا الطرفين الموغلين في أحكام التطرف العاطفية:

تسـامح ولا تسـتـوف حـقك كلّه
وأبق فلـم يسـتـوف قط كـريمُ
ولا تَغْلُ في شيء من الأمر واقتصد
كـلا طرفَي قَصـدْ الأمـور ذمـيمُ

إن التـوازن العـاطفي نعـمـة يحس بأثرها من رأى بعين البصيرة تخبطات المتهيجين . .

يقول كعب بن زهير رضي الله عنه وقد فطن للتوازن العاطفي في ممدوحيه الأنصار رضي الله عنهم :

شم العـرانيين أبطال لبـوسـهـم
من نسج داود في الهـيـجـا سـرابيلُ
ليـسـوا مـفـاريح إن نالت رماحـهم
قـومـاً وليـسـوا مـجـازيعـاً إذا نيلوا

فهم ليسوا بأصحاب فرحة طاغية إذا انتصروا، وليسوا بأصـحـاب جـزع مـهلك إذا وقع بهـم هزيمة ، وهذا نوع من الاتزان العاطفي الذي يحتاج إليه من يتصدى لأمر الناس .

ومن هذا البـاب مـارواه ابن أبي شـيـبـه بسنده أن عليـاً رضي الله عنه سـئل بعـد مـوقـعـة الجـمل عن أهل الجـمل

«أمشركون هم ؟ قال : من الشرك فرّوا ، قيل : أمنافقون هم؟ قال : إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً ، قيل : فما هم ؟ قال : إخواننا بغوا علينا »[١] .

فها هو الخليفة الراشد سليل المدرسة النبوية الكريمة يحكم على خصومه الذين حاربوه وقاتلوه بحكم شرعي عقلي متزن، وكان من طبيعة الأمور عند ذوي الأحكام العاطفية العاجلة أن يصمهم بأقبح الأوصاف ، لكونهم في حربه والإضرار به يجتهدون .

ولكن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أنصف ولم يتطرف، وعدل ولم يطغ، وأقسط في حكمه عليهم ولم يكن من القاسطين، فذكر ما لهم من صفات حسنة ، ومن قبله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أوصى فقال: «لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً» أي لا يستغرق عليك حبك للشيء أو الشخص أو الفئة أو الشيخ أو المذهب كل عواطفك فتصبح كلفاً مغرماً، تبالغ في المحبوب وتتجاوز بحبه الحد ، وكذلك إذا حصلت دواعي البغضاء فلا يوصلك ذلك إلى البغض الشديد المتلف لمحاسن المبغوض .

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٥/ ٢٥٦ .

وأصل ذلك كله قوله عليه الصلاة والسلام « أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما »[١] .

وقد ترسم علماء الإسلام هذا المنهج المتزن فها هو ابن القيم رحمه الله تعالى ـ يقول : « ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثار حسنة وهو من الإسلام وأهله بمكان قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور بل مأجور لاجتهاده ، فلايجوز أن يتبع فيها ولايجوز أن تهدر مكانته وإمامته ومنزلته في قلوب المسلمين »[٢] .

ومن قبل ابن القيم شيخه الجليل بل شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية رحمهما الله تعالى ، قال : « مما يتعلق بهذا الباب أن يعلم أن الرجل العظيم في العلم والدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة وأهل البيت وغيرهم قد يحصل منه نوع من الاجتهاد مقروناً بالظن ونوع من الهوى الخفي ، فيحصل بسبب ذلك مالاينبغي

---

(١) رواه الترمذي والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة ، والطبراني في الكبير عن عبدالله بن عمرو وابن عدي في الكامل .

(٢) إعلام الموقعين ٣/ ٢٨٣ .

اتباعه فيه وإن كان من أولياء الله المتقين . ومثل هذا إذا وقع يصير فتنة لطائفتين : طائفة تُعظِّمه فتريد تصويب ذلك الفعل واتباعه عليه، وطائفة تذمه فتجعل ذلك قادحاً في ولايته وتقواه بل في بره وكونه من أهل الجنة بل في إيمانه حتى تخرجه عن الإيمان ، وكلا هذين الطرفين فاسد ، والخوارج والروافض وغيرهم من أهل الأهواء دخل عليهم الداخل من هذا ، ومن سلك طريق الاعتدال عظّم من يستحق التعظيم وأحبه ووالاه وأعطى الحق حقه ، فيعظم الحق ويرحم الخلق، ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات ، فيحمد ويذم ويثاب ويعاقب ويحب من وجه ويبغض من وجه ، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة ، خلافاً للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم »[١] .

ما أحوج دعاة هذا العصر الى هذه القاعدة السَنّية الجليلة أن يفهموها وينفذوها في واقع تعاملاتهم مع بعضهم، بدلاً من التطاول في هدم بنيان بعضهم وتسفيه أحلام بعضهم وتشويه أعمال بعضهم ، وبدلاً من التطاحن السخيف الذي يفرح العدو ويحزن أولياء الله .

---

(١) منهاج السنة ٤/ ٥٤٣ ـ ٥٤٤ .

سأل أحد المؤججين نيران التحريش شيخاً من الدعاة عن حكم من قال بقول مبتدع في صفات الله عز وجل هل هو ضال في كل عقيدته؟ فأجابه الشيخ : إن تعميم الحكم بهذه الكيفية لايجوز لافي الشرع ولا في العقل، وأن العدل يقتضي أن يحكم عليه بما يليق به في المسألة التي أخطأ فيها، فانبرى هذا السائل بانفعال وتعنيف يقول للشيخ : إذن أنت تقول بالموازنة بين الحسنات والسيئات، فأجابه الشيخ : نعم وهكذا كان السلف وسائر أهل السنة، فأجاب الذي كان سائلاً في الأول : السلف براءاء من منهج الموازنة هذا، ولايقول به الا مبتدع جاهل؛ فتأمل أخي الداعية كم بين هذا القول والأقوال السابقة المنقولة عن عمر وعلي وابن تيمية وابن القيم من البون الشاسع، وفي أدلة القرآن والسنة والسيرة وكلام علماء السلف ما يشفي الغلة في هذا المقام فنعوذ بالله من الهوى، ومسالك التشغيب والأغلوطات التي تنبت في أرض التعصب وتسقى بماء العاطفة الغالية، حتى يُرى حسناً ماليس بالحسن، وتنقلب الموازين، فيجرِّحُ المجهولُ أعلام الخير والهدى، ويتصدى للتعديل والتزييف من يُعدّ في أحسن الأحوال من مستوري الحال.

ومن علائم العاطفية المتطرفة إلغاء فضائل طوائف من

المسلمين بالجملة، والحكم على مذاهب وفئات من أهل السنة والجماعة بالضلال والابتداع جملة وتفصيلاً ، ومع كون هذه الأحكام منافية لروح الشرع الحكيم ومخالفة للعدل الذي قامت به السموات والأرض ، ومناقضة لمقصد من مقاصد الشريعة ومطلب من مطالبها الكبرى وهو (القسط) إلا أننا نجد في كلام أصحاب الشحناء مايدهش أولي الأحلام والنهى .

يقول ابن القيم رحمه الله في هذا المعنى (فإن كل طائفة معها حق وباطل فالواجب موافقتهم فيما قالوه من الحق ورد ماقالوه من الباطل ، ومن فتح الله له بهذه الطريقة فقد فتح له من العلم والدين كل باب ويسر عليه فيهما الأسباب)[١] .

ومصداق ذلك في إقرار النبي ﷺ أبا هريرة أن يأخذ مافيه نفعه من أخبث مخلوق وهو الشيطان الذي كان يسرق التمر وافتدي نفسه من أبي هريره بأن علمه أن آية الكرسي حصن من الشيطان فلما أنبأ أبو هريرة رسول الله ﷺ بذلك قال : «أما إنه صدقك وهو كذوب»[٢] .

---

(١) طريق الهجرتين ٣٨٧ .

(٢) صحيح البخاري ، في كتاب الوكالة ، باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل فهو جائز ٣/ ٦٣ .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى عند ذكر مايستفاد من الحديث :

(. . . ان الحكمة قد يتلقاها الفاجر فلا ينتفع بها وتؤخذ عنه ويُنتفع بها -إلى أن قال - وبأن الكذاب قد يصدق)[١] .

فالنبي ﷺ في هذا الحديث أثبت صفة حسنة لمن ديدنه وطبعه الشر ولم يمنع ذلك من الاعتراف له بما أحسن فيه ، مع ذكر شره وباطله ، كما لم يمنع من أخذ هذا الحسن وتقبله منه ، لأن الحق ضالة المؤمن أين وجدها فهو أولى بها ، وهذا لا يستقيم في الغالب لمن كانت نفسه متوفزة متحفزة مشحونة بالغلو حباً أو بغضاً أو تعصباً أو تفاخراً وهذه كلها من الخواذل التي تصد وتبعثر وتؤخر .

والعاطفة الجائرة سبب من أسباب الهزيمة الجائمة ولا حل لها إلا بتكثير نماذج النفس السوية التي تعادلت أطرافها .

---

(١) فتح الباري ٤/ ٤٨٩

(٤)

ضعف التخطيط والإدارة

إذا كان العالم الغربي قد تقدم في أمور العلم التجريبي والتقنية ، فمما لاشك فيه أنه قد واكب هذا التقدم وسابَقَه تقدم آخر يتمثل في إتقان التخطيط والإدارة ، وفي الجهة المقابلة إذا نظرنا إلى العالم الإسلامي فإننا نجد أنه قد واكب تخلفه المادي تخلف إداري مفجع من أعلى قممه إلى أدنى مستوياته ، وما يحس به الإنسان العادي من تعقيد إداري في مراجعاته اليومية ليس إلا دليلاً من أدلة كثيرة على رسوخ ظاهرة التخلف الإداري ، فإذا انتقلنا بأنظارنا إلى الدعاة الذين هم الأمل بعد الله في إنقاذ الأمة من سائر عللها وأدوائها فإننا نجد لديهم - وياللحسرة - من أنواع الضعف الإداري مايندى له الجبين ويتفطر له الفؤاد .

ألم يسمع الناس أن من دعاة الإسلام ومحبيه من يرى أن الإدارة والتخطيط لأمور الدعوة من البدع والمحدثات ؟!

وهؤلاء الذين يجازفون بهذه الأقوال ترى الواحد منهم إذا أراد بناء منزل له بحث عن المخططات الهندسية، وأوكل إدارة العمل فيه والإشراف على إتقانه وإنجازه إلى مهندسين من ذوي الخبرة والجدارة، ويتولى في سبيل ذلك الكثير من الوقت والجهد والمال ، أما أمور الدعوة فيرى أنها لاتستحق مثل هذا الاهتمام تحت دعوى أن وسائل الدعوة توقيفية ، وهذا الصنف يحتاج إلى وقت طويل حتى يقتنع بجدوى الإدارة والتخطيط لصالح هذا الدين العظيم ، هذا إن كان دافعه لهذا القول شبهة ، أما إن كان حافزه لذلك شهوة دنيا أو رغبة « الملأ » فلاجدوى من إقناعه .

والكثرة الكاثرة من دعاة الإسلام - ولله الحمد - ترى أن من وسائل الدعوة ماهو اجتهادي يتنوع بتنوع الأحوال والأزمنة والأمكنة، وترى أن التخطيط والإدارة لأعمال الإسلام من باب مالايتم الواجب إلا به ومع ذلك فهناك ضعف في هذا الجانب وتقصير واضح يجب استدراكه ، والسعي في هذا المجال، وكسب العلم والخبرة الإدارية وإسالتها في أودية العمل الإسلامي دعوة أو علماً أوإغاثة .

لقد اشتكى الشافعي رحمه الله تعالى قديماً من غلبة اليهود والنصارى على الطب ، ففي سير أعلام النبلاء « قال

صالح بن محمد جزرة سمعت الربيع سمعت الشافعي يقول: لا أعلم علماً بعد الحلال والحرام أنبل من الطب، إلا أن أهل الكتاب قد غلبونا عليه »[١].

وحريٌ أن نقول في عصرنا هذا : سبقنا اليهود والنصارى إلى التخطيط والإدارة في أمور دنياهم وحياتهم المعيشية وما به خدمة عقائدهم، وجدير بدعاة الإسلام وهم يريدون قيادة الناس ومقاومة الفساد ومعاندة الكفر ومعاكسة تيارات الانحراف أن يكونوا مع إيمانهم ورسوخهم العلمي وحماسهم اللاهب وخبراتهم الميدانية وخلطتهم الاجتماعية أهل دراية إدارية، لأن الأمة في حاجة إلى جيل منقذ يمارس خدمة الإسلام بأرقى أساليب التخطيط والإدارة.

« جيل يتجاوز العشوائية ويكفر بالغوغائية ويحتكم إلى الحقائق لا إلى الأوهام ولا ينسى وهو يتطلع إلى السماء أنه واقف على الأرض، فلا يجري وراء خيال كاذب أو حلم فارغ، أو أماني موهومة، فيسبح في غير ماء، ويطير بغير جناح!.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٩٩.

*جيل كبير الآمال، ولكنه واقعي التفكير، يرنو إلى شاطىء الأحلام، ولكنه يتوقع هياج البحر، وغضب الموج، ومفاجآت الأعاصير، يعلم أن الدهر قُلَّب، وأن الدنيا دول، وأن الأيام سجال، وأن دوام الحال من المحال ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾[1].

* جيل واقعي لايسبح في البر، ولايحرث في البحر، ولايبذر في الصخر، ولاينسج خيوطاً من الخيال، ولايبني قصوراً على الرمال!

ولاييأس من روح الله، ولايقنط من رحمة ربه، ولكنه يعرف حدود قدراته، ودائرة إمكاناته، فلا يبتغي الثمرة قبل أوانها، ولايستعجل الأشياء قبل إبّانها، ولايورط نفسه فيما لايستطيع، ولايدخل نفسه في مأزق لايعرف الخروج منه، متمثلاً قول الشاعر:

وأحزم الناس من لو مات من ظمأ

لايقرب الورد حتى يعرف الصدرا!

* جيل يراعي قوانين الله في كونه، كما يراعي أحكامه في شرعه، يتبنى سياسة النفس الطويل، والصبر

---

(١) آل عمران: ١٤٠.

الجميل . فهو يصبر على البذرة حتى تنبت ، وعلى النبتة حتى تورق، وعلى الورقة حتى تزهر ، وعلى الزهرة حتى تثمر ، وعلى الثمرة حتى تنضج ، وتؤتي أكلها بإذن ربها !

* جيل يؤمن بالعلم ، ويحترم العقل ، ويدين للبرهان، ويرفض الخرافة ، ولا يتبع الظن وماتهوى الأنفس، تعلّم من القرآن والسنة أن التفكير فريضة، وأن التأمل عبادة ، وأن طلب العلم جهاد، وأن الجمود على القديم لمجرد قدمه جهل وضلال ، وأن الاتباع الأعمى للآباء والكبراء فساد وخبال، فهو لهذا يفكر قبل أن يحكم، ويتعلم قبل أن يعمل، ويستدل قبل أن يعتقد، ويخطط قبل أن ينفذ ، ولا يقبل حكماً بلا بينة، ولادعوى بلا برهان. قد وضع نصب عينيه قول الله تعالى : ﴿**نبئوني بعلم إن كنتم صادقين**﴾[1] وقوله ﴿**قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا**﴾؟[2] .

وقوله تعالى ﴿**قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾[3]

* جيل عمل وبناء جماعي :

---

(١) الأنعام : ١٤٣ .

(٢) الأنعام: ١٤٨ .

(٣) البقرة: ١١١ .

جيل لايقف أبناؤه عند التغني بأمجاد الماضي ، ولاعند النواح على هزائم الحاضر ولاعند التمني لانتصارات المستقبل انما يؤمنون بأن المجد بالعطاء لا بالمفاخرة ، وبالإنتاج لابالثرثرة ، وأن الفتى من يقول : ها أنا ذا ، وليس الفتى من يقول : كان أبي . . . وأن الانتصار على مآسي اليوم ، وتحقيق آمال الغد ، إنما يتحقق بالجد لا بالهزل ، وبالبناء لا بالهدم ، وبالعمل الهادي لا بالصراخ المدوي ، وأن الإيمان الحق ماوقر في القلب وصدقه العمل . وماخلق الله الناس إلا ليعملوا، بل ماخلقهم إلا ﴿**لنبلوهم أيهم أحسن عملاً**﴾[1] ولهذا يعتبرون العمل فريضة ، وإحسانه عبادة ، والتعاون عليه جهاداً ، موقنين بأن الله لايضيع أجر من أحسن عملاً ، ولايظلم مثقال ذرة، وسيرى الله عملهم ورسوله والمؤمنون .

جيل يؤمن بأن العمل الجماعي لنصرة الإسلام واستعادة سلطانه ، فريضة وضرورة ، فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع ، وأن اصلاح الفرد - وإن كان هو الأساس - لايتم إلا في ظل جماعة يعيش في كنفها

---

(١) الكهف : ٧ .

تعلموا من كتاب ربهم أن الله يخاطبهم بالتكاليف بصيغة الجماعة ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ حتى يشعروا أنهم متكافئون في تنفيذ ما أمر الله تعالى ، والانتهاء عما نهى عنه ، كما تعلموا منه أنهم يناجون ربهم ، إذا قرأوا الفاتحة في كل صلاة بصيغة الجماعة ﴿**إياك نعبدو وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم**﴾[1] فهويتكلم باسم الجماعة ، وإن كان وحده خالياً حتى تظل الجماعة حية في ضميره ، مذكورة على لسانه ، وبذلك تذوب فرديته في سبيل أمته وتختفي «**أنا**» لتبرز مكانها « **نحن** » .

وتعلموا كذلك من كتاب ربهم أن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولايتفرقوا ، وأن يتعاونوا على البر والتقوى ، وأن يتواصوا بالحق والصبر ، وألا يختلفوا كما اختلف الذين من قبلهم فيهلكوا كما هلكوا ، ولايتنازعوا فيفشلوا وتذهب ريحهم .

أجل . . علّمهم دينهم ، وعلّمهم تاريخهم ، وعلّمهم واقعهم ، أن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه ، ضعيف بمفرده ، قوي بجماعته ، وأن اليد وحدها لاتصفق ، وأن صيحة الفرد

---

(١) الفاتحة : ٥ ، ٦ .

وحـده لاتسـمع ، وأن يد الله مع الجـمـاعـة ، وأن الـذئب إنما يأكل من الغنم القـاصـيـة ، وأن اتحـاد العـدد القليل يقـويهم ويعـوضـهم بقـوة الوحـدة عن ضـعف القلة ، وأن اخـتـلاف العـدد الكثير يضعفهم ، فلاتغني عنهم كثرتهم شيئاً . وأن الأهداف الكبرى التي يريدون من الأمة تحقيقها من التحـرر والوحدة والنهوض والنماء ، وتحكيم الإسلام في الداخل ، وتبليغه في الخارج ، لايمكن أن تتم إلا بجهود جماعية بناءة، ومالايتم الواجب إلا به فهو واجب .

وقد علموا من قراءة الواقع : أن أهل الباطل يتكتلون حول باطلهم فأولى بأهل الحق أن يتجمعوا على حقهم ، وأن من فرقتهم أيام الرخاء ، أهل لأن يجتمعوا في ساعة الشدة «إن المصائب يجمعن المُصابينا » وأن المعارك الكبرى توحد المختلفين أمام العدو المشترك ﴿**إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيانٌ مرصوص**﴾ (١) .

إن اللبنات المتناثرة - مهما يكن عددها - ومهما تكن متانة كل واحدة منها - لايكون منها بناء ينتفع به الناس . إنّ نفعها مرهون بتجمعها وتماسكها بصورة منتظمة ، وفقاً

---

(١) الصف : ٤ .

لتصميم معلوم ، ونظام مرسوم .

لهذا صمموا على أن يبحثوا عن أشباههم ممن ينشدون الحق ويرفضون الباطل ويدعون إلى الخير ، وينكرون الشر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ليضعوا أيديهم في أيديهم ، ويضموا جهدهم إلى جهدهم ، لتتكون من اللبنات المتناثرة جدار متين ، ومن الجدران المتعددة دار شامخة ، ومن الدور المتنوعة مدينة عامرة ، فمضوا في طريق العمل الجماعي ، يعملون في صمت ، يعيشون متواصلين بالحق والصبر ، متواصلين في العسر واليسر ، ويبنون في صبر ، ويجاهدون بلا كلل ولا ملل ، وعزموا على أن يكونوا متعاونين على البر والتقوى ، متكاتفين في السراء والضراء «فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا[(١)]» [(٢)] .

هذه ملامح أصول التخطيط العملي للإسلام وفي فرعيات علم الإدارة وتفريعات فنونها مايستحق أن يكون محل عناية وتطبيق أهل العلم والدعوة .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي . انظر تخريجه في صحيح الجامع الصغير حديث رقم : ٦٦٥٤ـ ٢/ ١١٣٠ .

(٢) جيل النصر المنشود للدكتور يوسف القرضاوي من ص ٢٢ إلى ص ٢٦ .

(٥)

الصحراوية الروحية

مرت بالمسلمين حقبة من الزمن تناوش فيه بعض الناس مسألة مايسمى بالشريعة والحقيقة على أساس أنهما خطان متوازيان ؛ وسبب ذلك أن أهل التأله والتعبد نظروا بمنظارهم الخاص إلى ماعليه أهل العلم من اهتمام بالطلب والتعليم يفوق اهتمامهم بالعبادة والنسك ، وأهل العلم نظروا إلى جهالات وخرافات بعض أهل التعبد وعللوا ذلك بقلة علمهم ، فنشأ من ذلك صورة متضادة متناقضة بين (الشريعة والحقيقة) حسب التعريف الاصطلاحي آنذاك، وترتب على ذلك شيء من الانفصام بين العلم والعمل والمعرفة والتطبيق، وتغير حال الناس - وخاصة أهل الاهتمام بالدين - عن حال السلف الصالح الذين جمعوا بين العلم والتقوى والعقل الذكي والقلب النقي .

وفي هذا العصر الذي بدأت فيه معالم الأوبة إلى دين الله كل يوم تتضح وعلائم التوبة تظهر على الوجوه

والأعـمال ، يبدو أن شيئاً من ذلك الفصام باقية رواسبه في أذهان وعقول بعض الناس ولوبصورة غير مقصودة .

إن مما يثلج الصـــدر أن يرى المســلم شـيــوع منهج السلف وانتشار مذهب أهل السنة والجماعة بين شباب الصحــوة، إلا أن ممايـنغــص هذه الفـرحة ظهـور عـلائم يبوسة وكنودة يخشى معها أن تكون من أمارات ما أخبر به النبي ﷺ في قوله : (أول شـــيء يرفع من هذه الأمة الخشوع حتى لا ترى فيها خاشعا)[١] .

نعم إن جيل الصحـوة يحوز من الإيمان شيئاً كثيراً ولديهم من السكينة الإيمانية مايفوقون به عامة الناس ، ولكن ليس هذا هو المقصــود فـقط ، إذ هم الأمل المرتقب والرائد الذي لا يكذب أهله ، وللدعـــاة من أهداف الإصـــلاح والتغيير ، وهدم مقاصد الفساد ومواخير المنكرات ، وإيقاظ النائمين وتنبيه الغافلين ، ومراغمة المنافقين ، مايستوجب الصعود الدائب في مدارج الكمال ، وقوم هذه أهدافهم وخـواطرهم يفـترض فيـهم أنهم قد تسامـوا على إغـراء

(١) أخـرجه الطبراني في الكبيـر عن أبي الدرداء ، انظر صحيح الجامع الصغير حديث رقم ٢٥٦٩ .

المساومات وترفعوا عن سفوح المهانات واستعلوا عن رذائل أهل الترهات . . ولكن من سوالب هذه المقاصد مايرى من فتور وجمود ، وصلاده في القلوب، وجفاف في الأرواح ، تظهر نتائجه في سلوكيات عديدة كسوء الظن والغيبة والتكبر، والشدة على الناس ، وفحش اللسان ، وتأول الأسوأ والتعامل بالتي هي أخشن ، وظن غير اللائق بالدعاة والمؤمنين إلى غير ذلك من ظواهر قسوة القلب . .

تجد من متّعه الله بحظ وافر من العلم ، وهيأ له أسباب نشره وبثه ولكن فيه جلافة وقسوة إما على عموم الناس وإما على إخوانه الدعاة الذين يخالفونه في أساليب الدعوة ، وكان حريٌ بهذا الداعية أن يكون لطيفاً مع الناس، ودوداً ليناً مع أقرانه ورفاق دربه، إذ في الرفق والتودد واللين من دواعي الجذب إلى طريق الخير والهدى مثل مافي الشدة والفضاضة والعبوس من دواعي التنفير، أليس عجيباً أن ترى بعض الأخيار وقد اعتاد على تقطيب الجبين حتى كأنه يحمل فوق رأسه الخَلّ يخشى أن يَقْطُر عليه؟ فوجهه مكفهرٌ وجبينه معقود وألفاظه خشنه وتعامله يابس وقد وصل الحال ببعض اليابسين أن أصبحت نظرتهم إلى من يكتب في الرقائق وتصفية النفوس أو يتكلم فيها نظرة شك وريبة وربما اتهام

بالصوفية والابتداع، ومن غرائب أهل هذا المسلك أن بعضهم نفى بعض كتب الرقائق عن أصحابها مثل كتاب مدارج السالكين، وسمعت أن بعضهم وَسَم شيخاً فاضلاً بالصوفية، وعندما طلب منهم البرهان على ذلك ذكروا أنهم لاحظوا كثرة بقائه في المسجد وإكثاره من الذكر بعد الصلاة وإطالة الدعاء وأنه يزيد في صلاة النافلة. سبحان الله!.

إذا محاسني اللاتي أُدلّ بها

كانت ذنوبي فقل لي كيف أعتذر

وإن أَنْسَ لا أنسى مشهداً رأيته في مكة وكان قد اجتمع فيها جماعة من الفضلاء للرد على أحد الموغلين في التصوف.. رأيت أحدهم يصلي الظهر وهو محرم وقد وقف في الصلاة وقفة يستحي أن يقفها أحدٌ أمام أحد زملائه.. يده تحت سرته وقد مال بجانبه متكئاً على إحدى رجليه مريحاً الأخرى، ورقبته مائله ورأسه مُشخصاً به إلى علو وعيناه تجولان... وفي عشية ذلك اليوم رأيت ذلك الرجل المنتقَد في اعتقاده وهو يصلي في هيئة من الخشوع والخضوع والتذلل والانكسار الظاهر ماتمنيت معه أن يكون صفاء ذاك في خشوع هذا.

وقديماً كانت علائم الزهد والتأله سبباً في اغترار الناس بمذاهب أهل الضلال، وماحكاه الغزاليّ في « فضائح الباطنية » عن طرائقهم في خداع الناس بما يظهرونه من عبادة ونسك وزهادة دليل على أثر هذا المسلك في نفوس الناس، «وقد كان المنصور يخضع لزهد عمرو بن عبيد وعبادته ويقول

كلكم يطلب صيد كلكم يمشي رويد

غير عمرو بن عبيد »[1]

قال الذهبي في السير بعد إيراد قول المنصور سالف الذكر « قلت : اغتر بزهده وإخلاصه وأغفل بدعته »[2].

وقد أورد ابن خلكان قصة هذه الأبيات التي قالها المنصور وهي تتضمن ماأظهره عمرو بن عبيد من زهد وتخفف من الدنيا ونسك[3].

لقد أصيبت درجة الإحسان بضعف كبير في حياة كثير

---

(١) ميزان الاعتدال ٣/ ٢٧٩.

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٠٥.

(٣) انظر وفيات الأعيان ٣/ ٣٦٠.

من الناس فأمحلت مرابع القلوب وأسنتت عرصاتها ، ولايكفي في علاج هذه الظاهرة مجرد ذكر الضعف والإشارة إلى اليبوسة الحاصلة ، بل لابد أن يتخذ الدعاة والمصلحون من مناهج العلم والعمل مايعلّم القلب الخشوع والعين الدموع على غرار ماكان يفعله السلف في قولهم « هيا بنا نؤمن ساعة » .

ذكر الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء في ترجمة عبدالرحمن بن شريح رحمه الله : «قال هاني بن المتوكل حدثني محمد بن عبادة المعافري قال : كنا عند أبي شريح فكثرت المسائل فقال : قد درنت قلوبكم فقوموا إلى خالد بن حميد المهري استقلوا قلوبكم وتعلموا هذه الرغائب والرقائق ، فإنها تجدد العبادة وتورث الزهادة وتجر الصداقة ، وأقلوا المسائل فإنها في غير مانزل تقسّي القلب وتورث العداوة .

قلت -القائل الذهبي - صدق والله فما الظن إذا كانت مسائل الأصول ولوازم الكلام في معارضة النص ، فكيف إذا كانت من تشكيكات المنطق وقواعد الحكمة ودين الأوائل؟! فكيف إذا كانت من حقائق الاتحادية وزندقة السبعينية ومرق الباطنية؟! فواغربتاه وياقلّة ناصراه آمنت

بالله ولا قوة إلا بالله»[١]

وأقول : فكيف إذا كانت مسائل خلاف بلا هدى، ونوازع طيش على هوى، وحب غلبة ، ورغبة استعلاء ، وإرادة خفض للآخرين ؟! فكيف إذا كانت غيبة للدعاة ، وتحريشاً غامضاً أو جلياً بالعلماء العاملين والمجاهدين الجاهدين ، وتصنيفاً قاسطاً بلا برهان ولا بينة ؟! فكيف إذا كانت غمزاً ولمزاً وسخرية بالأعمال واتهاماً للعقائد والنيات؟!.

يهـــدم بعضنا بعضـــاً ويمشـــي

أواخـــرنا على هـــام الأوَالـــي

فلا خلاص من هذه الرذائل إلا بعزمة صدق يكتال معها المؤمن من فيوضات الرحمة مايلين قلبه ، فينتفض على الرعونات المستولية ، ويقطع حبال التحريش وسوء الظن وذلك حين يصبح له في المسجد خلوة يتنقل بين اسطواناته يمرغ وجهه تارة ، ويرطب لسانه بالذكر تارة ، ويتغنى بالحواميم تارات ، ثم ينقلب إلى المقابر يستنهض من عِبْرَة

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ١٨٣ .

رفاتها حياة قلبه، وتكون له في وقت نزول الرب سبحانه تملقات تكسب وجهه الضياء والنور، ويعكف على قراءة كتب الرقائق من كتب الحديث ومؤلفات ابن القيم كالمدارج والجواب الكافي وغيرها ليكون مَخْمُوم القلب رطب اللسان باسم الوجه منشرح الصدر مرتقياً إلى منازل الصديقين متصفاً « بالفتوة » سماحة لاتكلفاً وخلقاً أصيلاً لاتخلقاً «فيُحسن إلى الناس ويكفُ الأذى عنهم ويحتمل أذاهم ويصفح عن عثرات الإخوان، ويظهر النعمة ويخفي المحنة، ولايدّخر ولايعتذر ويترك الخصومة ويتغافل عن الزلة وينسى الأذيّة، فلا يخاصم بلسانه ولاينوي الخصومة بقلبه، وينسى إحسانه إلى من أحسن إليه حتى كأنه لم يصدر منه، ويقرّب من يُقْصيه ويكرم من يؤذيه، ويعتذر إلى من يجني عليه سماحة لاكظماً ومودة لامصابرة . . ومن أراد فهم هذه الدرجة كما ينبغي فلينظر إلى سيرة النبي ﷺ مع الناس يجدها هذه بعينها ولم يكن كمال هذه الدرجة لأحد سواه، ثم للورثة منها بحسب سهامهم من التركة، ومارأيت أحداً قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه، وكان بعض أصحابه الأكابر يقول «وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه ومارأيته يدعو على أحد

منهم قط وكان يدعو لهم .

وجئت يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه ، وأشدهم عداوة وأذى له ، فنهرني وتنكر لي واسترجع ، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزّاهم ، وقال : إني لكم مكانه ، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه ونحو هذا الكلام ، فسروا به ودعوا له وعظموا هذه الحال منه فرحمه الله ورضي عنه »[1] .

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٤٥ .

الخاتمة

هذا ما فتح الله به في هذا الجزء من «زغل الدعاة» وسيتبعه ـ بعون الله تعالى ـ الجزء الثاني ويحتوي على العناوين التالية: المعاريض الكاذبة، وعيون الرضا والسخط، والتعالي والفخر، والتعميم الظالم، وإظهار التفوق، وكسب المواقف قبل كسب القلوب، وسرعة إصدار الأحكام، ومصادرة الجهود، وجمود عاطفة الحب، والواهم الجازم، ونفسية التبرير، أسأل الله أن يعينني على إنجاز هذا وأن يجعله خالصاً لوجهه نافعاً لمن يطالع فيه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

محتويات الكتاب

الموضـــوع — الصفحة

الموضـــوع الصفحة

تم بحمد الله الجزء الأول

ويليه الجزء الثاني.. إن شاء الله

من إصدارات
دار الأندلس الخضراء

١) المختار المصون من أعلام القرون ١/ ٣.
٢) التاريخ الإسلامي مواقف وعبر ١/ ٣.
٣) دليل مكتبة المرأة المسلمة ١/ ٢.
٤) إنصاف أهل السنة والجماعة ومعاملتهم لمخالفيهم.
٥) الشيشان صقور الجبال البيضاء.
٦) صور من العفة.
٧) الهمة طريق إلى القمة.
٨) الرد على منكر صفتي الوجه واليد.
٩) أدب الخلاف.
١٠) الأربعون النووية.

ردمك: ٤ ـ ٠٨ ـ ٧٩١ ـ ٩٩٦٠